مكتبة

د. كفاح أبو هنود

على خطى إبراهيم

IN THE FOOTSTEPS OF
IBRAHIM PBUH

عصير الكتب

د. كفاح أبو هنود

عَلى خُطى إبراهيم

IN THE FOOTSTEPS OF
IBRAHIM PBUH

عصير الكتب

1157 | مكتبة
t.me/soramnqraa

لتجارة الكتب

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولى: يونيه 2022م
- رقم الإيداع: 13288/2022م
- الترقيم الدولي: 978-977-6972-34-6
- المؤلفة: د. كفاح أبو هنود
- تدقيق لغوي: أحمد إبراهيم
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب

ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» لتجارة الكتب

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية

أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

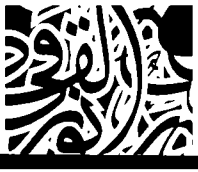

مكتبة 1157
t.me/soramnqraa

على خطى إبراهيم

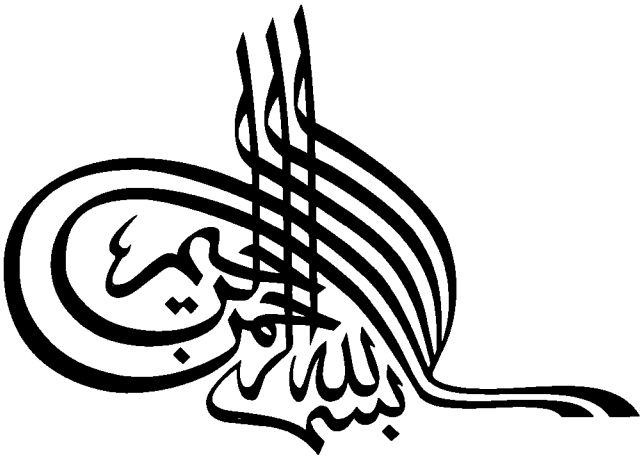
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أبينا إبراهيم

إلى مَن صنع الكلمات بالتضحيات

وكتب ألفَ باء الهجرة إلى الله

وعلَّمنا معنى المعنى

وكيف يكون الإسلام استسلامًا

إليك وأنت تسند ظهرك إلى البيت المعمور في ملكوت السماء

هأنذا هنا أحاول أن أشعل من فقر فهمي مشكاة أبلغ بها رؤية

رحلة بلغت بك خليل الرحمن.

المحتويات

المقدمة 11

ذاكرة الحكاية 13

في الفقد كان الوجد 17

وصار العمر زمزم 21

في وحشة المجهول أضاءت دعوة 25

التضحيات عتبة المقامات 29

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ 33

حراس السنابل 37

بردة الإمامة 41

معنى الرحلة كلها 47

مهمة الاصطفاء 53

من الفناء إلى البقاء 59

منتهى المقام 65

كفٌّ تستحق الإجابة 73

مفاتيح الرشد 79

لبيك اللهم لبيك 85

أسلم فأسلمت الخطى 91

أمة محمد إجابة إبراهيم 99
على أستار الكعبة 105
زمزم بركة هاجر وإبراهيم 111
سفر كله إياب 115
خارطة الحشر 119
معنى الحج 125
في مكة تصغر الأحزان 131
خيام منى 135
اكتملت الرحلة 139

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

ليس ما بين يديك كتابًا يسرِد معلوماتٍ، بل هو محاولة قلب لفهم كيف بلغت الهجرة يا أبا الأنبياء مقام القرب والحب واختصاص الخلة من الله.

هو محاولة لفهم التضحيات في قلب نبي كريم وصلت به إلى كرامة أن يسند إليه مهمة بناء بيت الله.

هنا ستجد على سطور الصفحات خريطة النبوة من العراق إلى الشام إلى مكة كأنها معنى التين والزيتون، وستلمح صلة المقامات بجهاد الأقدام، وستسمع صوت هاجر في يقينها، وفورة زمزم من بركتها، وستشهد أفواج الحجيج يلبُّون صوت إبراهيم كأنه الآن في الزمان وفي المكان... هذه المدونة كُتبت بقلم يسيل مداده في محاولة فهم: (إن إبراهيم كان أمةً)، حتى كأن المعنى: وحدك أنت الزّحامُ.. ووحدَكَ أنت بكلِّ الأنـام!

نبي كلّ خُطوةٍ له كانت تعدِل مَسيـر أمة.

كلّ خطوةٍ كانت ترفَعُه إلى حيثُ البيت المعمور في السماء السابعـة!

وكل خطوة كان بها ميلاد أمة

أمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم

فإليك ما تدفق به معنى المعنى.

ذاكرة الحكاية

حيـن تتجه إلى الكعبة.

تلتقي عيناك بقدم إبراهيم هادئةً في المقام... فقد انتهى السفر هنـاك!

تراها ضاربةً جذورها في عمق التاريخ. تقترب منها. تحاول أن تفهم خبايا أسرارها!

فتراها صامدةً كلحظتها؛ يوم تقدمت نحو النار دون تلكؤ.

فقد كانت قـدم إبراهيم، قـدم صـدق!

كانت الجهات يومها في حـس القوم كلها منهارةً، إلا فـي بصيرة إبراهيم.

فقد كان يردد:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾.

يومها...

بدأ الابتلاء ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾.

وقدر المسافات للغايات الجليلة، أن تكـون طويلة.

فانطلق إبراهيم وحده خارجًا من حدوده، كـي يبلغ المقام.

انطلق إبراهيم مـن العراق إلى فلسطين، حتى يبلغ الكعبة.

فهـل تعني لك هـذه الخارطـة شيئًا؟

هل تمتلك هذه الرحلة سرًّا أو رمزًا، أو رسالـةً لـك أيها المسلم؟

ماذا كان يحمل هذا المهاجر في حقيبة سفره... في سر صدره،

في خطاه المرسومة بحكمة الأقدار؟!

وبماذا كان يبوح في كل حواراته مع الشمس والقمر والنجوم؛ فقد كان إبراهيم لا يتقن النظر إلا إلى النجوم!

كـان قلبه هناك عاليًا، حيث العـرش.

وكان عبـدًا كثيـر التـأوه والدعـاء.

إذ كان يوقـن:

(أن الأقدار التي تأتيك بعد الدعاء لا تدعـك حيـث وجدتـك)

كان إبراهيم في ترحاله ينزف كثيرًا؛ كي يمنحنا الكثير!

كل رحلاته...

كانت غارقةً في التضحية!

كانت قدمه تسعى من فلسطين إلى مكة؛ أتدري لماذا؟

كي تُودِعُ الصغير للصحراء!

تلك رحلة الفناء عن الذات لله...

ومـع كل خطوة:

كـان إبراهيم يقترب مـن مقـام الخليل.

رحلة كلما تقدمت فيها يا إبراهيم إلى مكة، كان الدرب يفرغ.

فوحدك أنت الزحام

ووحدك أنت بكل الأنـام!

كل خطوة له... كانت تعدل مسيـر أمّةٍ.

كل خطوة، كانت ترفعك إلى حيث البيت المعمور في السماء السابعـة.

من غيرك يا إبراهيم يطيق أن يودع طفله للمجهـول!

طفل السنوات!

التي أجدبت طويلًا دون صوت كانت تشتاقه فطرتك العميقة!

إسماعيل هو طفل السنوات.

التي اشتهت ضمة الصغير، واحدودب الظهر دونها!

يحمله إبراهيم لله دون أن يتعثر.

فقدم إبراهيم، لا يليق بها إلا الثبات.

لذا؛ ظل النور يمضي، حيث تمضي يـا إبراهيم!

كان لخطوته على الرمل المنساح في الصحراء، دويٌّ في السماء.

فقد كانت تمهد الطريق بين القبلتين!

تلك خطوات...

ستبقى في ذاكرة الخلـود!

يـا إبراهيم...

هل تعلم أن عيد أمة بأكملها، سيبدأ من خطوتك تلك نحو مكـة!

لقد سطرت بقدمك ميلاد فكرة...

فحق لقدمك أن ترتاح في ظـل البيت أبدًا!

وحـق لك...

أن يجعل الله لك ﴿لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ يقتدى بك...

فبقيت حيًّـا يـا إبراهيم، وقـد مـات القـوم وجفـوا!

يـا لرهبة الأقدار...

كيف يولد الصغير من عطش الشوق إليه، ثم يحمل إلى عطش الصحراء!

فيبكي الوليد شوقًا لقطـرة الحيـاة...

فتنهمـر زمـزم فوارة أبـد الدهـر...

ويبنى البيت...

ليعلمنا الله:

(إنك إن صدقت، فستختبئ لك المعجزات في الأسباب المستحيلة)!

تلك هـي مدرسـة إبراهيـم...

فتأمـل!

مكتبة
t.me/soramnqraa

في الفقد كان الوجد

اســأل رمال مكة عن آلام خطى هاجر وهي تتماسك، كي لا تلحق بإبراهيم.

يقولون: يــا هاجــر! إن إحساس المرأة بالحزن والألم، يعدل ثمانية أضعاف إحساس الرجل.

فكيف صمت الوجع فيك، وإبراهيم يرحــل عنك وعــن الرضيــع؟!

لا شيء كان يخيف هاجر في هذه الصحراء، مثل مغيب الشمس في هذا المكان.

ترتعش هاجــر في هذه الصحراء الشاسعة، وما تدري أن اليابس تحت قدميه سيغدو سقاية الحجيج أبدًا.

تهرع إليه.

يــا إبراهيم.

كيف تجمَّع علينا غيابان: غيابك أنت، وغيــاب الشمس؟!

هل نذرتنا للفناء؟!

صدقني لا شــيء يوحــي بغيــر ذلـك.

آلله أمرك بذلك يــا إبراهيم؟ فأجاب: نعــم!

كــان الله فــي عليائه يشهد تلك اللحظــة.

لحظة اختيار بين خطوتين: نحو إبراهيم أو نحو الله.

لحظةً!

سجلت لهاجر في تاريخ الكون، وبها اعتلت المـرأة مكـان الشمـس!

تسامت على ضعفها، حتى كأنها أسطورة من خيال التاريخ.

أي دين هذا الذي يوقظ النساء، كي يصعدن من السفح إلى حيث تقيم النسور!

كـي يصبحن أيقونة الفداء.

كي يملأن الصخور المتشققة من الجفاف بماء لا ينقطع!

كانت الدروب الصامتة تسمع وقع أقدام إبراهيم مثقلة بالرحيل.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ كم مرة تهدج صوتك، أو تقطع، أو تحشرج يـا خليل الله بين الكلمات!

مشهد تئن له السماوات، ولا تئن له جارية في مقتبل العمر.

كـان الرعب يحيط بها: الرعب في انتظار العتمة الآتية، وفي بكاء طفل يحرك سكون الصحراء المخيفة؛ لتلقي بأثقالها في وجه الجارية.

تنحني هاجر على الصغير فتبدو أمامها الحقيقة عاريةً، لا شيء إلا صراخ الرضيع.

تتشبث بـاليقيـن:

(إن الله لـن يضيعنا).

تشد اليد الغارقة في عرق الخوف على حبل الثقة بالله، ومثل لبؤة مفزوعة تهرع بيـن الجبليـن.

تهرع بين الصفا والمروة.

ثمة ما يستحق الحياة.

ثمة ما يستحق السعي.

ثمة حكمة وراء كل هذا الهول.

كانت الأنفاس المتلاحقة في هرولة الخطوات تستبيح الصدر المضطرب بالخوف المشتعل.

هنا الوحدة والوحشة.

ومـوت يفترس الطفل.

ورمـل ينتثر في عينيها، كأنه اللهيب.

ولا إبراهيم يؤنس الطريق.

ترى... هـل بكـت؟

لم تسجل ذاكرة الصحراء إلا ارتفاعًا في صوت اليقين!

هل كتمت صرختها!

لم تشهد السماء إلا صمت الموقنين!

هل شكت!

لا.

إذ علمها إبراهيم أن النور لا يعبر إلا بعد اكتمال الليل.

وعلمها إبراهيم أن كل ما يحجب الثقة بالله خطيئة.

تلك جراح نزفت، فأضاءت للأمـة الطريـق.

يـا هاجـر!

لو تعلمين أن عتمة الصـحراء مـن يقينك تكاد تضـيء.

كـانت زمـزم حينها تنتظـر ضربة قـدم الصغيـر.

وكان لا بد لذلك من اكتمال مشهد التضحية، وتقديم كل القرابين.

(وعند انسـداد الفـرج... تبدو مـطالع الفـرج).

يسعى الحجيج اليوم على الخطى الجليلة.

على خطى جارية، كتبت من خوفها انتصار إرادة الله عبر امرأة.

(هــاجــر)...

لك من اسمك أوفر النصيب في هجرة تمت لله وحده.

هــجرة لم يلتفت فيها القلب.

أيــا سيدة المعاني الكبيرة.

[منك تستلهم المرابطات اليوم في حرم الأقصى، حكاية النصر القريب.
ومنك تستلهم الأسيرات في سجون الظلم معاني الثبات!].

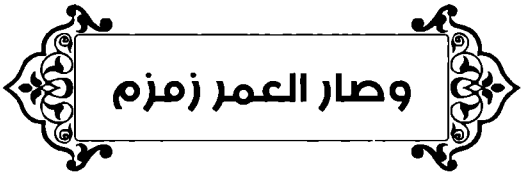

وصار العمر زمزم

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾.

كم هو عمرك يا إبراهيم؟

هجرات ثلاث.

وسنوات ممتلئة بالتضحيات.

وبناء بيت لله.

ومشاهد لا تحصى، مـن مواقف الثبات.

بهذا تقاس الأعمار يا سيدي.

بعمقها، وليس بطولها!

تسكـن قامات النخيل العراقي فـي عمرك.

وتتجذر أفعالك، كأنها جذور شجرة زيتونة مقدسية.

ويتسع عمرك، كأنـه صحراء الجزيرة التي بنيت لله فيها بيتًا ليس له مثيل.

ما أطول عمرك يا سيدي!

فرب عمر اتسعت آماده، وكثرت أمداده، وأمطرت غيماته إلى قيام الساعـة.

رفعت بيتًا لله، فرفع الله لك ذكرك، ورفع مقامك.

فلم يلقك محمد ﷺ إلا في السماء السابعة، مسندًا ظهرك إلى البيت المعمور.

ووحدك دون الخلائق، امتلكت هذا الشرف الجليل.

مـن عمرك انبثقت يقظة الإنسان يـا سيدي.

فأنت من نزع الحجب عن العقل، وأثار كل تلك التساؤلات، وعلمنا كيف يكون الإيمان مبصرًا وواعيًا.

كانت آمالك كل مساء، تتبخر إلى السـماء.

تجمعها لك إرادة الله، وتكتب لك بها مواعيدك مع غيث... سترتوي منه البشرية جمعاء.

كم المسافة بيننا وبينك!

كم المسافة بين آذاننا وصوتك، إذ تؤذن {في الناس بالحـج}، فتخلو الآفاق إلا من صـدى كلماتك!

كم المسافة بين أعمارنا وعمرك، الذي يزدحم بالأحداث، ويسهر كل ليلة على الأمنيات الجليلة، حتى استحق أن يسطره الله على صفحات القرآن.

كـم كان عمرك يوم كنت ترفع القواعد من البيت بيدك التي أورقت بناءً شامخًا، لم تغيره الدهور!

لم يكن إبراهيم يشيخ.

ولم يكن لديه وقت للنهايات الذابلة، فقد كان يعيش بقلب يستمد زيته مـن نـور السـماوات والأرض.

كان إبراهيم موطنًا لـ {رحمة الله وبركاتـه عليكـم أهـل البيـت}.

كان إبراهيم يخلع من خطوته كل التوافه، ويبقي قدمه على العتبات الثقيلة.

وكان وحده من يستحق أن يقال له: (مر وهذا الأثر).

يـا إبراهيم.

على قدر نيتك اتسعت لـك الأرض.

فأنت حاضر اليوم في صلاة الأمة، وفي مناسكها، وفي كل لحظة التقاء بالبيت العتيق.

لــخير هذه الأمــة وخيرنا.

أنت رحلــت.

واعتليت الصخر، وبنيت.

وكتمت الدمع ومضيت.

وغادرت العراق، وما جزعت.

وتركت لله جارية وطفلًا، وما انحنيت.

لــخيرنا...

تطاولت كفك، حتى اغتالت كل أوثان الضلال.

ورسمت لنا بعدها، ميلاد أمــة الهــلال.

ولــخيرنا...

لــم تنكسر نصفين أمام هول النــار.

لــخيرنا...

لم تتمزق أمام جفاف الخريف.

وكنت كبيرًا في حزنك، وفي سؤلك، وفي انتظار الربيع.

واليوم

لــخيرنا يــا موطن الخليل.

يــا بقية الخليل.

ابقوا على الربــاط.

ابقوا على الطــريــق.

في وحشة المجهول أضاءت دعوة

{ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة}.

كان الساكن ولدًا واحدًا... وكان الدعاء ليقيموا «بواو» الجماعة، فكيف يتسق ذلك؟

كيف يصح أن يودع إبراهيم طفلًا ثم ينوي به فعل الجماعة؟

الحقيقة أنه لم يكن لإبراهيم ساحل في طموحه؛ إذ رأى في الرضيع فعل أمة.

{ليقيموا الصلاة}، ترى هل كانت تؤرقك إقامة الصلاة يا إبراهيم؟

في هذا الفراغ الهائل من الصحراء الصامتة. بمن سيقيم إسماعيل الصلاة! وعلى أي قبلة سيتجه؟

كان إبراهيم في دعائه ينسكب أنهارًا من الفهم، كان يخبئ مكنون أمنية أن يصطفي الله إسماعيل لبناء البيت.

ويحيي به موات الحياة، فتولد بميلاده خير أمة.

ما أبدع القرآن إذ تصطف الحقائق فيه لتنهي عصرًا كانت الأمنيات فيه ضئيلة.

إنه يقول لك.. ما أوهن الذرية! وما أسرع ذبولها يوم تكون {زينة الحياة الدنيا}، وللزينة مواسم، والمواسم لا تدوم.

ها هو يقلب التاريخ ويصنع زمنًا فيه معنى {إني نذرت لك ما في بطني محررًا} ومهمة جليلة {ليقيموا الصلاة}.

ومقامًا في الحياة رفيعًا ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾.

{وإذ يرفع} بيد تختزن دعاء الأب الصالح، وتتسع لقدر اختارها الله له، «وبياء» المضارع حتى كأن الفعل ما زال حيًّا.

سبحان الله... أي حياة هذه التي لا تموت!

حتى كأن دعاء إبراهيم ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِىٓ﴾ ، حفر في مسامع السماء.. فلم يبقَ إلا أن تنهمر له السماء إجابةً وعطاء.

من يقدر أن ينوي في الطفل غير فرح نفسه!

من يقدر على ذلك يجمع الله له في الطفل مدائن الأفراح!

مالحة هي النيات إن لم تكن للغايات الجليلة، نتجرعها ولا نكاد نسيغها.

وربما نقطفها مثل عمر الورد القصير.

ربما لم يلمس إبراهيم يد الصغير ولم يناغيها، لكن الله خبأها له ساعدًا شديدًا، ترفع معه أعمدة البيت.

ويا للمفارقة في التعبير القرآني! إذ يصف الله سريرة إبراهيم في إسماعيل بقوله {ليقيموا الصلاة} وفي الإقامة معنى رفع البنيان حتى يكتمل.

ثم يصف فعل إسماعيل إذ كبر بقوله: {يرفع القواعد} فيظل بذلك ﴿عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾.

لكأن إبراهيم أراد من ربه طفلًا لكل العصور وكل الدهور، طفلًا يكبر فتكبر معه سنابل القمح ويعرف كيف ينشر العبير.

يا إبراهيم! في سريرتك كنت تصنع لنا إيقاعًا جديدًا لا نعرف عزفه، وكنت تعلمنا أن البطولة أن تتفرد في إيقاعك.

قيل يومًا: (علوٌّ في الحياة وعلوٌّ في الممات)، وأنا أقول إن علو النيات ينفي عن صاحبها الممات.

ألا تسمع صوت زمزم كيف ظل يفور!

ألا ترى البيت وهو يكتظ بالحجيج!

ألا تبصر نسل إسماعيل ينساحون من كل فج عميق!

من أراد صهيل الخلود في الملأ الأعلى، فليعتل خيل {كان أمةً}.

التضحيات عتبة المقامات

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾.

ما بين هذين الموقفين ألف تاريخ وقصة، ما بين ليلة الاعتراف لإسماعيل بنية الذبح، وبين مقام إبراهيم فتى بين يدي أبيه يناديه:

﴿يا أَبَتِ إِنّى أَخافُ أَن يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحمنِ فَتَكونَ لِلشَّيطانِ وَلِيًّا﴾.

يا الله هل كان يظن إبراهيم بنفسه أن يذبح ابنًا صالحًا يقول له: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

مـا فعلها «آزر» معـه.

ويـا للمفارقة في الأقدار!

فعلى حين هدد إبراهيم من أبيه بالرجم؛ ها هو إبراهيم يرجم إبليس الواقف عقبةً في طريق ذبح الطفل الصالح الذي {اشتد} حتى ﴿بَلَغَ مَعَهُ السَّعۡىَ﴾.

ما الذي يفعله الله بإبراهيم!

ما الذي يفعله الله بإبراهيم!

تتكـرر المشاهـد فـي غرابـة عجيبة.

تدور كدوامة غامضة.

يتصبب الماضي عرقًا فـي جسد الخليل.

يشتد الخفقان المر في قلبه.

وتتآكل قدميه مـن شـدة المشـي.

تجف الكلمات في حلقه:

يا هاجر! كم مرة سعينا مـن أجل هـذا الوليـد!

كانت الأولى بيـن الصفا والمـروة يـا ولـدي، كـي ننبش لك الحياة.

وفي الثانية: نسعى بك بين العقبات، كـي نهيئك للمـوت.

هل السعي قدر لنا؟

هل ألهجرة والرحلة والسير حكايتنـا؟

متى ستهدأ الأقدام التي أكلتها تضحيات الطـريق؟

يـا بني!

قـل لأبيك: لا! ربما أعتذر لك بها عند ربـي.

ولا تقل: يا أبت، فثمة موت يعتريني كلما ناديت.

للمرة الألف... يقف إبراهيم أمام الابتلاء وحيدًا.

فقبلها النار، وبعدها النفي.

ولكنها المرة الأولى التي ترتفع يده كي يرجم الشيطان، حتـى لا يوقفه فـي منتصف الأمـر.

ربما كانت النار أرحم لو عادت بها الأقدار.

تشتعل فتائل الحـزن فـي الصميـم.

وتشهد له السماء رغم ذلك، أن إبراهيم لم يراوح بين نعم ولا.

يا الله هل يحتمل إبراهيم صرخة إسماعيل عند الذبح؟

أما كان يكفي صراخ الرضيع في وحشة المجهول!

فما زال نحيب ألمها في السويداء لم يصمت.

هل جربت أن لا يبقى بينك وبين ابنك إلا سكينة الذبح!

أن لا يبقى من عمره إلا انهمار الدم!

أن تسوقه؛ كي تنهال على يديك قطرات روحه وهي تئن.

كانت يد إبراهيم تقاوم اللجام.

وكان الابتلاء، ينهال عليه ويصب صبًّا.

وكان ملكوت الله كله يشهد دوي اللحظة الأخيرة ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾.

ودت الشمس لو تتوقف عن المسير.

وصمت الكون. فقد كان الحدث فوق طاقة الحياة.

انزوت الكائنات، قبل أن تنكسر أرجوحة الصغير بيد كانت تفيض بالقمح والسلام، ولم تعرف إلا تكسير الأصنام.

ماذا يفعل الله بك يا إبراهيم؟!

النجمة التي اشتهيتها طويلًا ووهبتها كل الدعاء؛ ها أنا أغمضها للموت.

وسأبصر دمها كل صباح في أطباق الطعام.

ما بين ليلة المنام حتى لحظة النهاية، قطع إبراهيم ألف خطوة بألف تنهيدة وتنهيدة.

ووحده كان الله يسمع: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيًّا﴾.

هأنذا أحتاج أن أرتلها كثيرًا.

أحتاج أن أقاتل الشيطان بكل حجارة الدنيا.

يا للأقدار كيف نبتلى بما نقول!

وعند النهاية قالت الحياة:

(ما ذنب اليمامة أن ترى بعينيها العش محترقًا وتجلس فوق الرماد)!

للمشهد بقية:

فالمقامات عند الله لا تورث، ولكنها تنـال بسبق القلوب.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾

هذه الآية هي عرش الحكاية.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾.

وارتديا ثياب الخروج من ذواتهما، ونزعا حلي الحياة، وتخلصا كلاهما، فلا ألوان في عينيهما إلا لون الحقيقة.

وأيقـنا أنه ما ثم إلا الله!

ما ثم إلا هو؛ كي يقلب النار بردًا وسلامًا.

ما ثم إلا الله.

هي لحظة الاعتراف؛ أن الأمر كله لله، وأن الهزيمة نصيبنا، إن أفلتنا الحبل الموصول بالله.

كان الله يعلمنا عبر مدرسة إبراهيم.

أن لا عقل ضرير ولا مشاعر محايدة مع الله؛ بل هو إيمان أبيض واضح لا مناطق رمادية فيه. لا مناطق مترددة فيه.

إيمان أبيض تمامًا كلون ثياب الحجيج.

يرى الحقيقة جلية: أن مـا في الكون إلا الله.

إيمان يفهم أن المختارين لصناعة الحياة هم قمم الحياة... لذا لا بد أن تغسلهم السماء، فلا يبقى فيهم شائبة.

{أسلما}.

هكذا إذًا اطو نفسك واستوطن أمر الله، حتى لو كان فيه نحيبك وصوت وجعك.

{أسلما}.

فماذا يملكان إذ لا مفر منه إلا إليه؟

في هنيهة من الزمن، انحنى الألم بين يدي الله.

فقد كانت اللحظات تضيق وتضيق، ولا تحتمل دمعةً أخيرة.

{أسلما}.

حتى إن ذاكرةً بحجم الكون لن تطيق أن تفهم، كيف يستسلم الأب للسكين في يده تنهش رقبة الوليد.

{أسلما}.

بيقين أن لا مد ولا جزر، ولا صيف ولا شتاء، ولا نقص ولا اكتمال إلا به!

{أسلما}.

حتى تراءى لهما أن الأصوات يتيمة بلا صدى، إن لم ينفخ فيها الله.

وأن الحطب تهجره النار إن أراده الله بلا معنى.

واهم من يظن: أن له حولًا أو قوة.

ربما لأجل هذا أوصى الخليل محمدًا في رحلة المعراج أن يعلمنا: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

كم هو ثمين أن نرى أسباب هشاشتنا!

أن نفهم أن قيود الحياة: مـن مال وبنين وجاه هي أغلال الأرض التي تعرقل صعودنا نحو المجد.

كم هو مهم!

أن نرمم أنقاضنا، إذا أردنا أن نبني بيتًا لله.

الأشياء الصغيرة من متاع الدنيا لها جاذبية مخفية، قد تسحبنا إلى أفراح كثيرة.

لكنها تزول!

والله كان يريد للمصطفين حضورًا في الكون، لا يغيب.

ها هو الوقت في لحظة من الصدق، يتوقف لا يأتي ولا يمضي.

وفي لحظة من انبثاق إيمان لم تجربه الملائكة، يولد الهلال، ويكبر ويستدير.

تنفتح بوابة من النعيم.

تنفجر أنهار الجنة، بغناء أسطوري عجيب.

ينطفئ لهيب السكين، ويفتدى الذبيح.

فقد وصلت لحظة الوعي، وبلغ الاثنان تساميًا عجيبًا.

كان الله يعلم كل ذلك.

لكنه يريد، أن يسمع صوت إبراهيم بالتسليم.

ثمة صوت سيمنحك الله إياه يا إبراهيم، سيبلغ كل الآفاق.

سيأتونك بـه ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

صوت لا بد أن يمتحن، كـي يبلغ المقـام.

وتلك ضريبة الاصطفاء.

وأنى لك يا إسماعيل شرف الدهر! إن لم تترك لله بعض نفسك!

أن تتخلص يا إسماعيل من متاهة الذات، وتكتشف أن لديك قوةً، يمكن أن تودع بها نقاط ضعفك البشرية.

فذاك نوع من الانتصار، يستحق كبشًا من فوق سبع سماوات.

كان الله يريد لك زمنًا بلا حدود وبلا نهاية.

ويريد أن يبقيك في التاريخ.

فقد كنت دعاء أبيك.

وقديمًا في جاهلية عمياء قيل:

(للبيت رب يحميه).

والحقيقة...

أن للبيت أهلًا تبنيه.

يصطفيهم حين يبرهنون أنهم قاربوا مرحلة ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

وهنا يكمن الدرس الخفي.

واليوم (للأقصى).

أهل تحميه وتبنيه.

وعلى خطى الخليل وإسماعيل ستعليه!

فهذا زمن القرابين المباركة للبيوت التي سترتفع، فلا تـزول... لـو تنتبهون!

حراس السنابل

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

{أهل البيت}.

تعبير قرآني، يوحي بمعان مكثفة، تعبير لم يذكر في القرآن إلا مرتين:

الأولـى: كانت وصفًا لبيت إبراهيم -عليه السلام-.

والثانية: في نفي الرجس عن أهل البيت لمحمد ﷺ.

فمن {أهل البيت}؟

{أهل البيت}... هم أهل بيت؛ أسس بنيانه على تقوى من الله.

أهل بيت صامتة جوارحهم في الخطايا.

ولدبيب نعالهم صدى في الجنة، كأنها حفيف أوراق الشجر من كثرة سعيهم.

{أهل البيت}... كل البيت... إذ دومًا من البيت يبدأ ثمن الأحلام.

فمن النادر أن يجد رجل امرأةً تحلم معه، ثم تحسن أن تحمي الأحـلام.

امرأة يأتي معها المطر، وتحول البشرية بفرح نحو قبلة يريدها الله لبقية أعوام الحياة.

صدقوني...

إذا أحب الله عبدًا، رزقه سنديانة تحفظه في غيبته، ثم تحنو عليه، وتخبز معه قمح المعركة.

فما أندر أن تجد امرأة؛ تحرس السنابل في الحقول المثقلة بانتظار لحظة الحصاد الآتية.

امـرأة تعرف كيف تنتظر في مواسم الحر القائظة، وتمسح عن الوعد الإلهي حبات العرق.

امـرأة ...

تنفرد إذ ترتل الصبر في العاصفة، وتجعل من سقوط المطر لحظة التوسل لمن ملك الأقدار المـغيرة.

ذات يوم قيل: (وراء كل رجل عظيم امرأة).

وأنا أقول: (وراء كل هجرة جليلة امرأة).

رجل وامرأة وطفل فقط، كانوا يشيدون المستقبل في أمنياتهـم، قبـل أن يشيـدوا بيتـًا لله.

هناك مقاعد شاغرة تتيحها لك الأقدار، وتنتظر من يتربع عليها، وتكون عتبات لـ ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

وقد استحقها باقتدار (أهل بيت) دون نقصان.

كان إبراهيم -عليه السلام- يتنفس الفداء كل يوم، ويمضي عمره في ثياب التضحية.

هل تدرين يـا هاجـر أن إبراهيم قدم حرمانه منك وفراغ الأيام إلا من الحنين إليك بين يدي ربه، فقد كان نبيًّا في قالب إنسان، وكان الله بذلك عليمـًا.

كان يثابر في عتمة الشوق، عل العتمة تلد ثلاثة أقمار، تحقق وعد النور في الصحراء.

أيا هاجر!

راحلان أنـا وأنت والصغير، حتى يولد الأمـل.

يـا هاجـر!

مـا أروع العقود التي تمهرها السماء!

كانت يدا هاجر خميلة عنبر، وفي حضنها بلبل.

وكان زهر النوار، يختبئ في الرحم التي غادرت إلى الصحراء، وحيل بينه وبينها.

يا الله! هـل خطر ببالك أن بعض الابتلاء، أن يحال بينك وبين من تحمل بذرة الأمل للولادات الجميلة!

هل خطر ببالك: كم صابر إبراهيم.

وكان يظل يردد:

(يـا قلب أنت وعدته، فاملك زمـام الصبر)!

ما الذي يجعلنا موطن نظر الله؟ فقط... أن ننقل بيوتنا إلى حالة تمثل كلمة الله.

{أهل البيت}... فقد كانوا أهل بيت، شاركوا جميعًا في رفع أحجار البيت.

أهل البيت وردت فـي سـورة الأحزاب.

حيث اجتمعت المعاول للهدم، فكأن الله يعلمنا:

(أن لا شيء يهزم جيشًا جبارًا، مثل أهل بيت يحملون رسالة)!

صدقني..

نحن لا ننهدم من الخارج أولًا.

بل ننهدم من الداخل، ثم يسهل إلينا الاختراق!

قـال لـي:

كيف بلغنا اليوم كل هذا الحزن المرتسم في ملامح واقعنا؟!

قلت له:

إن الحداد يبدأ من البيوت، ثم يستمر فـي الأمـة!

هناك في قوقعتنا الداخلية.

يولد كل حزن في الأمة.

تمامًا كما يختبئ الفرح القادم للبشرية، في عيون صغارنا.

يـا هـذا!

أهـل البيت كانـوا أهـلًا لبنـاء البيت.

ولـن ترتفع بيوت الله، إلا باكتمال بيوتنا!

إلا ببلوغنا حال {أهل البيت}.

بردة الإمامة

لماذا كان قدر إبراهيم هو الابتلاء.

لماذا تسطر الآيات موجز الرحلة بقوله تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾.

الابتلاء، تلك هي قصة بناء الكعبة، ومنها بدأت الحكاية.

فمن جرح إبراهيم... ومن منتهى الألم... ومن مسيرة التضحية، كان التئام حجارة البيت.

{وإذ ابتلىٰ}.

تنتبه اللغة هنا إلى عمق المعنى.

فالابتلاء اختبار الله لك يفتح به أبواب سرك حتى تشف الحقائق، ويفنى الوهم ويفنى الخيال.

يبدأ الابتلاء في عمرك، ثم تراه يضيق عليك، لماذا؟ حتى يفيض القلب بما خبأته السنون.

ويخرج الله بالابتلاء الخفايا.

يشتد الابتلاء؛ حتى تحدق العين فلا ترى إلا ملامح ما استكان في خفايا الروح.

ما أعجب الابتلاء! إذ جعله الله أول عنوان قصة إبراهيم.

لماذا؟ لأنّه هو من يكشف ثقوبنا، لكنه سرعان ما يخيط فتوق الروح.

فالله يبتلي ليهذب ولا يبتلي ليعذب، بل يعيد تشكيل القلب والروح والخطى.

ما أعجب الابتلاء، وهو ينقل المرء من هامش المنافي، إلى نص التمكين.

من الغياب إلى الحضور في سفر الخالدين.

وقد قالها الإمام أحمد: لا يمكن للعبد حتى يبتلى.

يكون الفراغ قبل الابتلاء، ثم إذا فاجأك، خطك الابتلاء سطرًا أبد الدهر مذكورًا.

ألا تلمح كيف تفيض حروف إبراهيم في الآية، كأنها كتبت بريشة لا صدى فيها للذبول!

﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ كأنها تقول لك: أمي وجوده.

كل من لم تمر به من الله الكلمات.

﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾.

تلك الكلمات والتضحيات صارت خيوطًا نسجت له بردة الإمامة.

{فأتمهن}، ترتعش الكلمات جلالًا، فهذه شهادة الله لإبراهيم.

أنه لم تنفلت عروة واحدة من قميص الابتلاء.

لم تنفرط عقدة من عهود الثبات.

يا الله! ثمة خيط خفي موصول، كان يمسك القلب كلما تخطف الابتلاء شعبةً منه.

{فأتمهن}، تتوهج جروحه ألمًا بتلك التضحيات، فتصبح لنا نجوم نستهدي بها!

{فأتمهن}، يضيق على إبراهيم قميص الابتلاء، فلا يفيض إلا ثباتًا.

وكلما كان القميص يضيق عليه، كانت تتسع له بردة الإمامة.

يبالغ الابتلاء في عتمته.

يتكدس في الروح، حتى يكاد يثقلها.

فإذا بالصبر يتنامى من إبراهيم على أطراف الابتلاء كلما امتد.

هل كان إبراهيم حينها مرهقًا، وهو يجاهد هذا الألم، أم كان لطف الله يلتقط من عمره أثر الجراح، فإذا بالسكينة وارفةً في الصدر الجليل؟!

لا شك أن الله كان معه، وعلى قدر حال قلبه كانت المعونة.

يا لإبراهيم وهو يتم الكلمات!

يا لإبراهيم في غربته، ولا أحد يهش عنه ليل الوحدة في سفر الابتلاء!

ربما كان وحيدًا لأنه (إذا عظم المطلوب، قل المساعد، وقل الرفيق).

ترى هل كان إبراهيم يتألم؟

دومًا للابتلاء حاشية الوجع، وملؤه فيض الدمع والألم.

ومن ملح الدمع، كان يتهجى إبراهيم تلك {الكلمات}... تلك التضحيات.

نتساءل من أوقد روحك العلوية، حتى كلما مسها التعب أطفأه.

لقد كان عمر إبراهيم، مثل صلاة توضأ لها بماء الاستسلام.

عمره كان آية ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

عمره كان معنى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾.

عمره كان دليلًا على ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

كيف ثبتت في ابتلائك؟

هل كان إبراهيم يسمع في خضم الابتلاء صوت الكلمات: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾؟

ربما! ويقينًا أن تلك الكلمات التي امتُحنت بها يا إبراهيم، هي التي بلغت بكلماتك المدى حتى صار لها أبد الدهر خلود الصدى.

تتكرر الشهادة له من الله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾.

فيا للاسم إذ يكتبه القلم في اللوح المحفوظ، لم تسقطه كبوة، شهادة من الله!

يا للاسم إذ تكتبه ريشة ملك غمست في قبس النور فلا ينطفئ أبدًا!

يا للاسم إذ ظل يتلى في كتاب، لن يمحوه التاريخ، ظل يتلى في القرآن!

كيف بلغت ذلك يا إبراهيم؟!

كان إبراهيم يرابط على نياته في كل أدعيته، ويتعوذ برهبة من زلل يباغت الخطوات، ومما يخذل الخطوات، يتعوذ مما يستتر في الخفايا.

ظل قلبه يرابط على الغايات، وظل يدعو:

خذ بقدمي يا الله إلى أرض تظل الآثار بها باقية، وخذ بمقامي إلى حيث سدرة المنتهى، وخذ بسعيي إلى حيث تتوق الملائكة أن تبلغ.

يا رب! وجهت إليك مآربي.

املأ يدي بالعطاء الذي لا ينقطع، فقد أوجعني هذا الفراغ.

يا الله!

ربما يصبح العمر زمنًا راكدًا.

نجمةً منطفئة على حافة الوجود، لكني أعوذ بك من أن يشدني العمر نحو التراب، وليس لي فوق التراب مئذنة تصدح بالكلمات.

فاستجاب له الله: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

{قال}... بكل أدوات التأكيد.

وكان ذلك يكفي، كي يصبح إبراهيم حكاية الأمة وحكاية القدر.

الإمامة.

إذًا هي بردة سر صاحبها أنه:

من تهيأ للمصاعب، صبت عليه المواهب.

وكل ما دونها من متاع، فهو ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾.

ما الإمامة إلا ازدحام الثبات في الخطوات، حتى لو بتروا عنك المتاع.

ما الإمامة إلا إتقان الكلمات حتى لو كان وزنها الدماء.

ما الإمامة إلا أبجديات التحدي تشد بعضها بعضًا، كلما انهمر الابتلاء وكاد القلب يغرق.

ما الإمامة بعد الابتلاء إلا معنى المكاشفة، بأن الصاعدين للسماء لا تعرف أرواحهم قبو القصور الفارغة.

ما الإمامة إلا بطولة التفرد عن الطرقات المزدحمة بالقطيع.

ما الإمامة إلا قرار النور، أن لا ينزوي حتى لو رأى النعش يعد له من سدنة العتمة.

ما الإمامة إلا السؤال لمن وقف في أول الطريق:

كيف امتلك قلبك فزع المسافات، والله يقول لك عن مقامه: {إني قريب}؟!

كيف نسيت أن السير على طريق الوصول وصول!

إيه! لقد كان إبراهيم يشد المسافات البعيدة نحو الإمامة، بالصبر على معنى ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، حتى لا تبعد الشقة.

هل تعلم ما البطولة؟ البطولة ألا تكون شبيه من سبق، بل تفرد لا يلحق به أحد.

فيا مولاي! نعوذ بك من القنط في الصبر على علو المهمات.

وقلة الحيلة في بلوغ المقامات.

لا تمتحن اللهم قلوبنا بما لا تملكه، وإن ادعت الألسن غير ذلك.

نعوذ بك من إدبار صنعته خطيئة.

إذ قلما أدبر شيء يا مولاي، فأقبل.

اللهم إن هذا القحط في همتنا لا يشفيه إلا الدعاء!

هذا القحط لا يشفيه إلا الدعاء.

فاجبر اللهم ثلمة غيابنا.

وارزقنا في {الكلمات} معنى الفهم، فإنه لا يثبت إلا من ثبت عن الله فهمه.

وبعض الخطى الواعية.

إذا تأخرت عنها الكلمات... شعرت بالخوف.

شعرت بالرهبة ألا تكون في سياق الاصطفاء.

بلغ إبراهيم الإمامة.

وعلى أطراف المنافي، وقف الذين تلكؤوا عند زينة الحياة.

وقد قيل: (إن الرجل لا ينتهي حين يهزم... بل ينتهي حينما يستسلم).

معنى الرحلة كلها

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

في هذه الآية يبدو الوعد بعد أن ينفض إبراهيم يديه وقد انتهى البناء، فيفوح عطر القبول بين أحجار البيت المعمور.

ترتفع يمينه بالدعاء. وكل إبراهيم يمن ويمان.

يكسو الكعبة ببريق الدمع. يقترب من الحجر الأسود، ويمتد البكاء.

ينظر إلى الكعبة فيغطي قلبه الواجف ضياء الأجوبة، فقد كان في رحلة الابتلاء لا يملك إلا الأسئلة.

الآن فقط، يظهر البيت شامخًا ويظهر لإبراهيم معنى الرحلة كلها.

يؤذن إبراهيم فيستبد السكون في الصحراء.

لا ريح تعبر هذه الرمال، لكن ثمة خطو كثيف على بساط الغيب.

يلتفت إبراهيم للصدى، فيسمع صوت التكبير: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

تلك حكمة الفلق.

من جفاف الرمل يولد الألق! لمن؟ للموقنين فقط، ولمن صبروا على ابتلاء الكلمات.

وهنا السر يختزن، أن كل الأماني المستحيلة ستولد في الوادي السحيق، ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾.

لمن رابطوا على اليقين في خضم الألم.

يقف إبراهيم ساكنًا.

إذ كلما زادت المعرفة، زادت السكينة.

يقف وحيدًا في الصحراء، لكنه ليس خاليًا، فقد كان ببصيرته مزدحمًا! وكان يرى الوعد، تلك الوحدة المتفردة يا إبراهيم، كانت موضع الماء على النار.

كانت نضج الاحتراق، وكانت عتبة التغيير! وكانت النار مهد الإمامة.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

يا الله! مثابة، في مكان تتكلس فيه الحياة من الجفاف.

مثابة... في مكان تشرق الشمس فيه على بؤس الأعراب.

مثابة، حيث ستصبح الرمال سجادةً منسوجةً من المطر والخير، ويفيض الصحن بـ ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

هناك في الفضاء الحر، حيث لا سقف يليق بالمكان.

بيت لا سقف إلا السماء، بيت يليق بدين طموحه العلياء.

هناك، سيصبح الفجر سخي الأحلام.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

يهيئ الله للناس فيه فردوسًا صغيرًا تقطف فيه الأمنيات.

ففي المطاف، ترى يقظة المستحيل، حتى كأنك تقطف الإجابة شهية.

يخط الساجدون بدموعهم، كل الأحلام التي أجهشت بالأفول.

ومن همهمة اللغات، تحرس الملائكة الدعوات، مثل ورد يسقى بماء القبول.

ترفرف أسراب الملائكة في المطاف.

تلتقط اليأس من أكف المتوسلين، ثمة حرير يغزل لهم من الإجابة ثيابًا من العطاء وثيرًا.

{وآمنا}.

في ذاكرة كل ساجد زمن من الحزن مكتظ، انتهى إلى زمن من الذكريات القديمة.

كل الذين تعلقوا بأستار البيت، كان شتاؤهم بلا حطب.

كان قد أصاب مراعي العمر عطشًا طويلًا.

وكانت الخرائب تصمت على الفراغ.

ها هم يحجون إليها، مثل نجمة جميلة.

يبلغون البيت في الليل، فتتلقاهم الكعبة، وتلقي عليهم نهارًا طويلًا.

عند الكعبة، يهب الله الجراح شفاءها.

وفي المطاف، تولد لغات بعضها الأنين والتأوه والحنين.

تضطرب الحروف، وهي تحكي لله مخاوفها.

يتأوه داع وهو يقول:

يا مولاي! كلما اجتزنا حزنًا، جاء حزن.

يتأوه فتظن أن كل الورى من شدة الألم كأنهم سمعوه لما استشفعك.

توقد كلمته دمعتين.

وتبدو السماء حينها شاغرةً إلا من الدعاء.

يومض المكان.

وفجأةً... يولد في الحزن الكثير... الكثير من الأمنيات.

يتدثرون في أستار الكعبة.

ويلحون على الله.

فقد أجهض اليأس أحلامهم.

يشتد صهيل الشوق إليه.

يفرون من أعماقهم، ويجهشون بالبكاء.

الأمن يا الله من الزلات.

هنا!

لا تضيع الدعوات، ولا تنكسر الأرواح، ولا يضل النبض الطريق.

{وأمنًا}.

هنا! تفر الروح من التيه إلى ملكوت المغفرة.

{وآمنا}.

هنا! أمن الخائفين، وأمان المضطربين، وقبلة الذين أحرق الجفاف حقول انتظارهم.

هنا الكعبة... مثابة للذين أوجعهم شغف الوصول.

فتشبث بها وتوجه إليها في صلاتك فهي قبلتك وأمانك وعندها تستجاب الأمنيات.

لذا كان الدعاء في الصلاة خير الدعاء.

عند الكعبة عين تتشبث بأستارها.

تسابق خطوها، وروحها تحوم في الهباء.

تأكلها الحيرة. ثمة وجه مفعم بالشظايا. مفعم بالآلام.

تمتد اليد الضعيفة نحو الأستار، يتمزق الصوت في نحيبه.

وعلى الأستار، تكتب الحكايات لله بماء الدموع.

تصيح الروح في فناء البيت، ثمة فتنة تزهر في عالمي يا مولاي.

ترتجف الشفة، وتحول عفتها بين البوح وبين الانهيار.

ما زالت يدها على الأستار، مثل مهزوم أخطأته الرماح.

تغمس الدعاء في ريقها المتقطع، وترسله إلى الله، متلعثمًا.

والله يسمع قلبًا قد أرهقه النزيف.

قلبًا يتأرجح على حافة الظن بالله.

كلماتها مثل ورد كثيف وهي تردد سؤلها، حتى كأن اللغة لم تلد إلا هذه الدعوات.

يتلو حارس البيت الآية {وآمنا}، كمن يشفق على المتعلقين بأستارها.

ينتابهم فزع الدهشة، وتنساب الأرواح في صوت الآية.

ويغفلون عن البكاء.

{وآمنا}. ذلك وعده. فيا لله! كيف ترسخ الأقدام حينها وتتجذر الدعوات فينا!

وكيف تصبح احتمالات الموت ذكرى!

وكيف يشتعل شاحب القنديل نورًا! كيف يتوهج الأمل!

وكيف يحكي لك العاكفون بعد ذلك مشهد النجاة من الوجع!

فاعتكف عندها في صلاتك وتوجه بالدعاء.

{وآمنا}.. وكل من لا يرى ذلك محجوب، وكل ما يحجب الروح خطيئة.

ها هم يطوفون بها بكل لغاتهم وخفي تمتماتهم.

وتظل الكعبة في وقارها، كأنما هي هيبة الحكاية الجليلة.

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

بصيغة الأمر الإلهي، يصبح مقامك يا إبراهيم مصلى.

والله، كل الأعمار هشةٌ دون خطوك يا إبراهيم.

بعض الأعمار تمر، دون أن تحرك الظلام عن عرشه.

دون أن تعلن النهار.

دون أن يهدر عمرها برقًا ولا رعدًا لله.

بعض الأرواح، رضعت الزينة، حتى ثقلت عن الهجرة لله.

وبعض الأعمار، نقطة الماء التي أطفأت الحريق.

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

هنا مقام تقرأ فيه النيَّات.

وهنا قدم كانت تتهجى العبور نحو ما يبدو الخواء.

هنا قدم هرمت، وهي تسير على رمل الأوجاع.

يشتد نور الكعبة، فيزداد ظل المقام عمقًا، ويترسخ إبراهيم في جوار الكعبة.

حقًّا! لا يخون الدمع الراحلين إلى الله، ولا يخون السبق أقدام المقبلين.

هنا مقام إبراهيم، حيث يعلمك المعنى:

أنه مقبول من جاء بهذا القلب حافيًا من زلاته، وكان في النيات خفيًّا.

لقد كان إبراهيم نبيًّا ليس في عالمه متسع للوسوسة.

ليس في عالمه متسع للنسيان، كان نبضه لا يتبعثر.

لقد كان إبراهيم نبيًّا ليس في عالمه متسع للغياب عن الله.

فيا رب.. جئناك شعث القلوب، فهذبنا.

جئناك شعث النيَّات، فأصلحنا.

نعلم أن الحكمة لا تسكن العتمة، فأنر دواخلنا، وعلى خطى إبراهيم مكنا.

مهمة الاصطفاء

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾.

كلمة واحدة من الله، ويولد الاصطفاء.

هنا معنى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾.

ويكتب لـ {إبراهيم وإسماعيل} القبول.

{وعهدنا}

هذا إعلان رهيب، إعلان ينفض الأحزان حتى كأن الأفراح بكرًا لم تمسها يد الابتلاء والوجع.

لماذا {وعهدنا}، لأن علم الله ينفذ إلى النيات.

علم الله ينفذ إلى العزائم.

فيقضي الله فيها ما يليق بها.

تلك السرائر كان ما فيها هو خبيئة العزيمة، والله لا يصطفي حبًّا به الوهن.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾.

الآن يعبر إبراهيم من ضفة الابتلاء إلى ضفة الاصطفاء، فقد أتم الكلمات وصبر وهو يشم رائحة الدم تكاد تفوح بين يديه من الذبيح.

الآن ينبلج نهار الذبح عاريًا إلا من إبراهيم يضيء فؤاده.

يا الله! كيف صبر إبراهيم.

يا الله! من يشق للحب رحيلًا بيديه.

من يشق للدمع مجراه، من يطيق ذلك سواك يا إبراهيم.

صدق الله وكان السعي سعيًا، لا خيبة فيه.

لا مسغبة فيه، سعي لا انحناء فيه.

إذ لا أوساط المواقف مع تكاليف الإمامة حتى لو كان ذبح إسماعيل بعض ابتلاء الكلمات.

ذاك زمن يؤرخه القرآن.

زمن احتشاد الثبات عند السكين.

زمنْ كان إبراهيم محرومًا فيه أن يقول للصغير:

(وداعًا يا بني! وداعًا يا انتظار السنين).

يا الله! إذ تله للجبين، وقد بلغ إسماعيل موعد الحب.

يستل إبراهيم السكين ليذبح إسماعيل.

فلا تسجل له هزيمة.

لا يسجل له هلع مكبوت.

كانت كلمات إسماعيل يتدفق فيها حزن غريب، ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

كأنه يدافع الوجع المتناسل في صدر أبيه.

كأن بين الشفتين والصوت، شيء يحتضر.

هنا قمة الاكتمال.

فلا عري في النيات ولا ورق يخصف على عري الثبات.

تلك لحظة تستحق خلود الأبدية، وقد خلدها الله.

ثم يكون الفداء، ودومًا يتجلى غيب الأقدار في دهشة المفاجآت، في دهشة العطاء.

لكن الله أراد أن يجعل الابتلاء، لغة المكاشفة للوهن الخفي في الأعماق.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾.

تلك هي المكافأة لمن حصد المقامات في رحلة جد.

لمن كان للهزائم بالمرصاد.

{وعهدنا}.

حتى كأن هناك أمانةً؛ لا يستحق حملها إلا من ضمه الوجع.

{وعهدنا}.

كلمة كأن فيها رائحة الولادة للمقامات العلية.

{وعهدنا}.

وليس أمرنا، فهنا الأمر فيه معنى العهدة المؤتمن عليها.

{وعهدنا}.

إلى من جاء لله بلهفة الخطوات، لمن خلص نفسه بالإخلاص.

لمن علموا خطواتهم درس الإياب.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

{وعهدنا}، لمن جمع نفسه على الله، فبعد كل جمع فتح.

وقد قيل:

(التفرد رافع للرتب).

أولئك اشتهوا عمرًا فكانوه.

أولئك من يملكون حقلًا من النيات الجليلة.

وسواهم هم، سبايا الغياب عن الصفوف الأولى!

هل تعلم أن أصل الغياب عن الاصطفاء هو التهافت على التوافه.

إن التهافت على التوافه أكلنا، حتى ما أبقى للاصطفاء فينا سبيلًا.

وقد قيل:

(الشهوة والصفوة، لا تجتمعان).

فقل:

اللهم إنا نعوذ بك من سنة الاستبدال، وحينها لات حين مناص.

اللهم أيقظ قلوبًا رمدت من تتبع الرخص، وعجفت رواحلها من كثرة الخطايا. وخملت من انحسار العزم، وانثنت تحت مطارق الدنيا وزخرفها.

فيا محيي الموتى أحي موتها.

هل تعلم أن دلالة الاصطفاء، أن تظفر بنفسك.

فلا يمضي العمر وأنت تجر ثقل ما ترسب فيك.

ألا يكبر فيك ما يثقلك.

ألا ينتهي العمر وأنت ذابل الألوان.

وقد كان يمكن أن تكون نجمة هادية.

هل تدرك أن في القلب تواريخ تعبأ بالنبض الخفي، و(كلما أصغيت للقلب امتلأت).

فيا مولاي!

خذ بقلبي عن صغائر الأمور، حتى تتسع الهمم في رضاك.

اجعل زحمة السعي والنيَّات في روحي عمرًا يشابه عمر إبراهيم.

﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

هذه مهمة الأنبياء.

التطهير.

أن تتسع الأماكن للأرواح.

ألا يقع غبار الشرك على بساط البيت.

ألا يقع غبار المعاصي على مصاطب البيت.

ألا يقع غبار الرجز على عتبات البيت.

أن يظل بيتًا لله دون بقية الأسماء.

ففي طهر التخلي فقط يفيض على عالم القلوب التجلي.

تلك هي الوصية، لو مر على البيت سنون عجاف.

مهما غمره العابرون بنقش الألقاب، سيظل البيت لله.

إذ البيت ضفاف بناها إبراهيم لمن ضلوا الطريق.

{طهرًا}.

لماذا؟

لأنه من اتبع كل شهوة، ضاعت منه نفسه، ولم يكن في القوم إلا ساعة.

ولن تراه يبلغ مقام الإمامة.

فهل تفطنت للمعنى.

الصحف الممتلئة بالندوب، لا يليق بصاحبها ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

كف القلب، حتى تبلغ المقامات، إذ كلما كف القلب الطرف عن المكروه، زاد الترقي.

والهج:

نعوذ بك يا الله من استمراء المكروهات.

ومن قلة الحيلة على غض القلب عن الشهوات.

نعوذ بك من هذر الكلام، وهدر الأوقات، وتشتت النيات.

مد لنا في حبال هداك.

وبلغنا غاية الشوط من رضاك.

ولا تجعل ابتهالنا مبتورًا.

ولقد طاف أحد السلف بالكعبة سبعًا ما يزيد على الدعاء:

اللهم أصلح لي قلبي.

هل تدري؟

لعل الخلاص الوحيد، أن ترفع الليلة قلبك إلى الله، ثم تقول:

(من إله غير الله يأتيكم بضياء).

من الفناء إلى البقاء

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

يتردد الاسم كرامة في القرآن مثل تربة زاخرة بالأمل، تظل تورق علوًّا ما بقي في المصاحف مدادها.

ولقد صدق إبراهيم ربه في المجيء، فاستجابت له المسافة، ولانت له الطرق.

صدق في القدوم، فانتهى اضطراب القدم، حتى احتمل جمر المسير.

ثمة نور في الصدر، كان يطوي وهن السير.

(ومن أراد لانت له السبل).

كان نبيًّا ثبت على الأمر وهو في قمة الفناء، فجعل الله له أسباب البقاء.

لكن كيف احتمل إبراهيم ذلك.

لقد كان إبراهيم محبًّا.

والمحب لله، عصي على الامتلاك لغير الله.

عصي على الشيطان.

المحب لله على الأمر مرابط.

المحب لله على لحظة المزيد مرابط.

وقد قالها أعرابي:

(كن سيلًا حتى تبلغ).

إذ كلما اتسع في الروح المقام، اشتدت الهمم.

شيء ما كان على أستار قلب إبراهيم.

شيء اسمه صادق الانبعاث، استحق به أن تسدل بجانب مقامه أستار الكعبة.

وقد قيل:

رائحة الأسرار في البواطن تفوح على الأعمال.

يبتلىٰ إبراهيم، فتولد الكعبة.

والمؤمن حين يبتلى، ينزف فيفوح عطره.

نبي رأى الله إناء قلبه يستحق أن يغدق عليه.

وفواتح الله تتجلى، على من اتسع بالنية.

على من اتسع بالهمة.

نبي اجتمع على العزم ومن اكتظاظ الثبات، يولد التفرد.

وفي عمر إبراهيم، لا نقطة توقف، لا لحظة تردد.

على خطى إبراهيم تعني: ألا تخلف موعدًا عقدته مع اليقظة.

إذ لا تفرد لمن يبحثون عن نصف الخطوة.

و(من عرف ما يضعفه، عرف ما يقويه).

فاستعلى عليه.

فيا رب! هبنا قوةً تعبر بنا كل هذا الوهن.

حتى نمتلك ذواتنا فنمتلك الخطوات.

أمتنا اليوم، جاءتها الفتنة فحسبتها لجةً، وكشفت عن ساقيها، فابتلت... أو لعلها غرقت.

ربما لأن الظلام يغوي الخطوات، وربما حينها، يشتعل ما استكن من الرماد.

وعلى التكاليف، يبدأ دومًا تلاعب الشيطان، ونضل حينها السير عن الخطى. حينها تتساقط الأسماء وقلما تخلد في عبورها.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾.

سلام على دعاء إبراهيم.

على نبي ممتلئ بالفقه.

وعلى دعاء مثقل بالوصايا لنا.

سلام على من دعا للأمة بحقوقها، فقال:

﴿بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾.

فجمع ثلاثية الحقوق التي تنجينا من العدم.

تتماسك بيوت الله في رسالتها، تصبح الصلاة فيها كاملة.

تعبر الصلاة بنا إلى خارطة الفتح، إذا كانت بيوت الله في بلد.

فما المعنى؟

تحج المعاني إلى الكلمة.

وتخبرك أن الإيمان ينكفئ دون بلد يحميه.

ذاك إيحاء المعنى.

فأقرئنا اللهم المعاني.

{بلدًا آمنًا}.

والأمن ثوب واسع.

إن ارتدته الأمة، بلغت مقام الشهادة على البشرية.

أمن من اغتيال الأفكار.

وأمن من خطف الحقوق.

وأمن من حصار العقول.

وأمن من انطفاء الطموح.

وأمن على الرزق والعرض.

ذاك أمن، لا تصنعه إلا الحرية من قيود الظلم.

وأما الخوف، فلا يصنع فينا إلا الأمنيات العاجزة.

فتنبه، إذ حرم الله العهد على صناع الخوف: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الإيمان لا يلتهب، إذا كان الخوف قيد العباد.

وكلما زاد الأمن، جاد الإيمان، وصار فوق العمر في الأمة أعمارًا وأعمارًا.

﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ لأن السعة بداية السلام في الإنسانية، وما سوى ذلك، هو انفراط العقد.

هو الأسر الأبدي.

هو انحصار الهم في رغيف.

ثلاثية العمران، يسكبها إبراهيم في دعائه.

حيث المسافة بين الجاهلية وشريعة إبراهيم، هي زمن الانعتاق من الفقر.

هي غياب الخوف.

هي بلد يحمي رسالة البيت.

وما سوى ذلك، فهو بؤس النهايات.

دعاء إبراهيم، ليس أمنية.

دعاء إبراهيم، جواب الأسئلة للمتسائلين:

كيف غمرتنا الفوضى اليوم، وفقدنا ملامح الطريق!

بيوت الله تنسج لنا ثوبًا من المطر، يقي خرائطنا التصحر إذا هي ولدت في ثلاثية الحقوق.

وما عدا ذلك، فهو هشاشتنا، وأصوات مآذن مهجورة في زحام قوة أجراس الكنائس.

دعاء... يعيذ الأمة من خلل الخطى.

من خلل الرؤى.

من نسك ناقص المعنى.

من زمن الشعائر بلا حقائق الغاية من بناء بيت لله.

دعاء...

فيه الزمن يتمطى، حتى بلغ أن سارت الظعينة من الشام إلى اليمن لا تخشى إلا الذئب.

فيا لله!

لو تبصر يا إبراهيم كيف أصبح الذئب في زماننا أهون الضرر.

دعاء...

ظل موجةً تتسع، حتى بلغت الزكاة أن تقدم، فلا تجد لها محتاجًا.

ويرش القمح على رؤوس الجبال في خارطة الإسلام، حتى لا يكتب أن طيرًا مر فسقط جائعًا في عوالمنا.

يا نبي الله ما مسنا الضر ولا مسنا الخطأ، لو فقهنا أنك كنت تعلمنا في الدعاء، كيف نحمي البيت؟

نحن المواعيد الملغاة مع المجد، دون دعائك يا إبراهيم.

نحن صمت البيوت من صهيل الرسالة.

وحلم الظالمين هو نخوض في التلاوة بعد أن نمحى من الطريق.

فيا رب!

اجعل سعي المصلحين، إجابة دعاء إبراهيم.

واللهم...

(آمين لكل دعاء يتجلجل في صدورنا، وتعجز الكلمات عنه).

اللهم آمين.

لكل ما نواريه من الأمنيات في ضمائرنا، ونخشى أن نحكيه.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾.

هنيئًا لك هذا الاصطفاء يا إبراهيم.

{وإذ يرفع}.

هذا البناء وثيقة سر بين نبي وربه؛ تحكي معنى النيَّات المعقودة لله وحده.

هنا حيث أحجار البيت تختزن صلوات إبراهيم، وفي بعض طينها انسكب الدمع.

{وإذ يرفع}... تصمت الحجارة، وهي تصغي لرفة القلب تتناثر بين ذكريات الذبح وزمن الرفع.

ذكريات انتفى فيها الجزع ومات العجز، وبلغ القلب مقام الاستسلام.

وفي منتهى المقام، تطوى الصحف على كلمة الله ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾.

كان إسماعيل قبل قليل ممدَّدًا على رصيف الرحيل، والله أعلم بلوعة الألم.

وكانت المسافة الفاصلة بين ضجيج الحزن وبين حكمة الأمر، استسلام إبراهيم وإسماعيل.

و(مطلق التسليم... هو مطلق الحرية).

لكن كيف استسلم إبراهيم وإسماعيل للذبح؟

كيف؟ ترى هل تلحظ عين البصيرة فواتح المخبوء من العطاء، فتصبر؟

هل يبلغ اليقين في قلوب الأنبياء رؤية الغيب فيسكن؟

هل تلك تباشير الأنبياء والأولياء، تزف إليهم في خافية من عين البشر؟

إيه! إن الاختبارات مهالك. لكن المضي فيها بالاستسلام واليقين نجاة.

ولا يقدر على ذلك إلا من بلغ إيمانه نصابًا عاليًا، فهل فهمت المعنى؟

{وإذ يرفع}.

يا للكلمة! إذ تحمل مراد البيت، فبيت الله لا يليق به كلمة «يبني»، بل كلمة: {يرفع}.

وبين المفردتين معنى المهمة! مهمة رفع المساجد إلى مستوى الرسالة.

بيوث الله يبنيها الكثير ولا يرفعها إلا من اصطفاهم الله لوراثة الأنبياء.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

يا الله! إذ تقصر الخطوة فينا عن مدى اتساع النية لدى إبراهيم.

فقد استحق الرفع للبيت لعلو في الهمم والنيات.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ﴾، لماذا إبراهيم؟ لأنه لا يرفع البيت إلا يد الفداء. إلا من ضحى بصمت.

إلا الذين لم يمضوا إلى القعود بحجة الذرائع.

إلا الذين احتملوا ضريبة الاختبار.

إلا الذين لم تنقلب نياتهم نحو عبور آثم.

والحق أنه لا يجوز مفازة الاختبار، إلا موفق وسواه هالك!

لا يجوز المفازة، إلا من كان محل نظر الله.

لا يجوز المفازة إلا قدم تسعى لله.

(وكل صعب... فهو في زمن الإقبال على الله سهل).

كان يرابط قلب إبراهيم على الوعد في غياب العطاء.

ونحن في فورة المشهد الآني، يتمدد الطين فينا، حتى كأنه الحقيقة، لكن المبصر يرى ما وراء الأكمة.

لأن النفس نطفةٌ بقرارة.

(إذا لم تكدر، كان صفوًا غديرها).

فهل بلغك المعنى؟

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تلك منحة إلهية، والمنح لا تعرض.

المنح توهب، المنح بعد المحن تأتي.

عليك سلام الله يا إبراهيم.

(عليك سلام الله! إن تكن عبرت إلى الأخرى، فنحن ما زلنا على الجسر).

سلام عليك في الابتلاء وفي الاصطفاء.

يا الله!

إذ يصبح عمر إبراهيم، نصًّا سابقًا في الأمة.

يا الله!

إذ ينشغل إبراهيم بامتداد الصوت إلى الآفاق.

ويكون الهم كله لله.

فيا رب إبراهيم! املأ عمرنا بمعالي الأمور!

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾.

يا الله! حين بل الغيث إبراهيم بلغ إسماعيل فالصحبة لا تخون.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ﴾، تلك إشارة القبول يا إبراهيم.

أما كانت تكفي فلماذا الدعاء؟

أما سكن قلبك لهذه الدلالة، فلماذا يؤرقك القبول، ومثلك لا يعرف بؤرة الذنب. ولا غدر النزوات، ولا النيَّات التي تستبطن في الخفايا، وفي واديها يدب الرياء.

فلماذا يؤرقك القبول؟

لقد كان إبراهيم مختلفًا، وكلما اختلف القلب اختلف النبض.

فثمة ما يلامس عمق إبراهيم، فلا يتوقف قلبه عن الوجيب.

كأنه يخشى مقام البعد عن الله، ولو كان هنيهة بعد أن ذاق لذة الجمع على الله!

ذاك امتلاء لا يعرفه إلا من ذاقه، وقد قيل:

(كلما طهر القلب رق...

فإذا رق راق... وإذا راق ذاق...

وإذا ذاق اشتاق... وإذا اشتاق اجتهد... من ذاق عرف... ومن عرف اغترف).

يا الله! إذ يكشف الله عن قلب إبراهيم، فيجعل المخبوء منه علانية.

وتكتب النبضات على سطور المصحف.

فيا لشغاف القلب! إذ تصبح معانيه آيات المصحف.

ويالشغاف القلب! إذ يصبح نبضه آي الكلم.

أي قلب كنت تملك يا إبراهيم؟!

{ربنا تقبل منا}.

القبول أرق المخلصين.

ولا يقدر عليه إلا الذي تحاشى شهوة الطين فيه.

لذا من يملك العبودية، يملك كل شيء.

يملك إسراء لا ينقطع.

لذا تنبه للمعنى في: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾.

{ربنا تقبل منا}.

فلا تجعل سعينا أنقاضًا.

ولا تجعل الدمع من الأحداق هباءً.

لا تجعل عمرنا كفنًا باهتًا، وحسناتنا يبابا يبسًا.

هبنا القبول، فلا يتساقط السعي سرابا.

يا رب!

قسنا العمر بالصبر، فلا تجعله زبد الغبار.

ولا تجعل الزاد في فجأة الجزاء خرابا.

وإذا فاحت روائح الأعمال، فلا تفضحنا.

نعوذ بك من خيبة السنين.

من فراغ الموازين.

من لا شيء بعد أن كان السعي شيئًا.

{ربنا تقبل منا}.

ما القبول؟

القبول: أن تكون صحو الأمة، فلا يحاصرك الأفول.

أن تظل سنبلة الوقت.

أن تظل كلماتك أورادًا، كأنها ترتيلة لا تغيب.

أن يولد أثر يقتفي أثرك.

ألا تكون الزمن الفائت، بل الزمن الحاضر ما بقي الكون وبقينا.

أتدري كيف، ما كان لله يبقى.

وقد قالها الإمام مالك:

(الجزاء موثوق، ولكن الشرط عزيز).

يطوف الحجيج فيشمون للطين في البيت مسك إبراهيم، عرق إبراهيم.

إذ أودع الله بعض أنفاس إبراهيم في الكعبة.

كان الغيب يصطف في عينه، مثل لحظات بيضاء تشبه ثياب الحجاج في صلاة الفجر.

تبدو البشرية في غفوة الانتظار، ويطل هو في يقظة الوعد.

يصافح الحجيج ضمةً وضمة ويستريح عند البيت المعمور في السماء السابعة!

يا رحلة الصبر!

ذاك درب كاد أن يكون مأتمًا.

فجعل الله منه مقام إبراهيم.

{ربنا تقبل منا}.

تلك هي خاتمة السعي.

وهذا أوان البوح.

{ربنا تقبل منا}.

رددها! حتى لا يكون عملك لله مدخولًا، فتقطع عتمة الحشر بخيط من نور كأنه عود ثقاب.

إذ إن أصل القبول صلاح السر.

فما كان الإمام مالك كما قيل: ليس كبير صلاة ولا صيام، وإنما كانت له سريرة.

فاللهم ارزقنا روحًا متوجهة إليك ونحن في خضم الاختبار.

ونيةً متوجهة إليك ونحن في لجة الإغراء.

وعينًا على المقامات إذا أطلت الفتن، واستشرفت لنا الشهوات.

وقلبًا ينبض بك ولك ولو صفقت لنا الحشود.

يا منتهى السعي.

ومنتهى الحب.

ومنتهى الأمل.

كفٌّ تستحق الإجابة

﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾.

للمعنى في الآيات روح لو سرى في ظلمة الليل لأضاءه.

تأخذ الآيات الروح من يأسها إلى شأن علا.

يدعو إبراهيم بكفٍّ مباركة، حفر البناء بها أخاديد تجذر القبول فيها.

كفٌّ تستحق الإجابة.

هنا يتوهج التوق العالي في الدعاء.

يتوهج في نجوى القرب.

ويزهر الوعد في حرم البيت، مثل نخيل في رمل البقيع نما.

يحلق الدعاء في مدارج صوت إبراهيم.. ويطلب من الله: {أمةً مسلمةً}.

يا لتفرد إبراهيم! لقد رفع عينه عن نفسه، وهجر ضفافه.

ووقف في مصلى اليقين، وطلب أمة.

وكان الدعاء في حده، أكبر من حدود المرئي.

ربما...

لأن (الدعاء باليقين كاشف لحجب الغيب).

ينهال الضياء في دعاء إبراهيم مثل الماء.

فذاك قلب فاض بالسقيا.

(وقد يملأ القطر الإناء فيفعم).

كان كل ما حول إبراهيم في الواقع ضامر الغصن في صحراء فارغة، ويذبل في صمت مريع، لكن إبراهيم يدعو بيقين، فيلوح نخيل كثيف من الروضة الخضراء، يهب النسيم، يبدو النخيل في طيبة كالمآذن.

ويستجاب الدعاء!

وفي المدى...

تتمدد حضارة لا تتبدد.

تنهمر السماء بالوحي، مثل الندى، تتورد الحياة، وتقف الكعبة كالطود في الصحراء.

يتوافد الحجيج وعند أستارها، ويلم الحجيج شتات قلوبهم.

يا الله!

كان دعاء إبراهيم حلمًا. وكم من حلم كان أنسه يقين اليقظة.

لذا قلب ليس فيه طمأنينة اليقين، لا يعول عليه، ولا يختار للإمامة، (ولن يُفتح لك باب لست تطرقه).

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

هنا لا شروخ في اليقين.

يصيغ إبراهيم من حروف الدعاء، غابة بياض اسمها، أمة النبوة.

لقد وجد إبراهيم معنى وجوده، لذا كان الدعاء، صدى سعيه، صدى ارتحاله، وصدى السجايا.

وكانت له الإجابة، إذ لا حجب تمنع عنه الإجابة.

فقد قدم كل القرابين.

وإن النزر الذي يقدم من خبز الجوع، لنزر مقدّس.

فقد انفرد في خانة البطولة وحيدًا.

والله من بعد، يحفظ للمخلصين أمنياتهم، يهبهم إياها، ويحوطها من أن تتدنى، من أن يمسها بريق الدنيا.

يحفظ نبضها؛ إذا تاه الجميع.

يا خفي اللطف... أدرك أمنياتنا من أن تضيع في سؤال ما يفنى! وقد خلقتنا لما يبقى.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

هل هزك المعنى؟!

عد بذاكرتك إلى المشهد، ها هو إبراهيم في ارتماء مخبت قد جفف الوجل ريقه أمام السكين.

فإذ بالله يجعل من الذبيح أمة.

يجعل من الزهرة حقل خزامى.

كان ذاك قبضًا تبعه وافر البسط، غمره باللطف، ثم غمره بالحب، فكان الأثر.

فيا لله!

كيف تنتهي المنايا، ويبتسم المحيا.

تستريح جراح إبراهيم من ملحها، تلك جراح لم يهزمها الألم.

لذا قال العارفون:

(لأن الجرح مهد الأمل، تصبر).

وقالها السلف في معنى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، ينتهي الصبر شكرًا، لأن الشاكر يرى المنن في طي المحن.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

لك وحدك، نحن نصبح أحرارًا بالقدر الذي نتخلص فيه من ذواتنا.

يصقلنا السعي، إن كان الإخلاص يؤم النيَّات.

سئل أحد الصالحين:

من المجتبى؟

فقال: من وجد أحسن سعيه ما كان في السر.

الإخلاص الإخلاص!

فـ «خليج صاف، أنفع من بحر كدر».

وحالة الصدق بالثبات... خليقة.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

ذاك هو همُّ إبراهيم.

سبحانَ من (يعطي المنى بخواطر في النفس؛ لم ينطق بهن لسان).

يستجيب الله لخاطر الدعاء، قبل أن يخرج همسًا.

يجمع الله ما تبعثر.

ثم يجعله امتدادًا غير منقطع.

يرفع القواعد ويسأل الله أمة ممتدة، وهو في نهايات عمره.

يا الله! ربما تنحني الأجساد على عكازة الكبر.

ربما يعجز الجسد.

ربما نجر الخطو.

لكن هيهات للصادق أن يكون بلا أثر.

قال ابن رجب:

كم ستر الصادقون أحوالهم، وريح الصدق ينم عليهم.

قصة إبراهيم.

قصة التاريخ عبر عصوره، وبعض القوم مروا وما ضروا.

وبعضهم هم عافية الدنيا من بلائها.

وما هذه الخطى، إلا كي نتعلم العروج.

كي نتعلم أنه:

(إذا اشتد الكَلَف، هانت على المرء الكُلَف).

فلماذا نخطئ التتبع للخطى؟

لأننا حيث نميل، فهل إلى الله تميل!

وإنما (أنت حيث يميل قلبك).

فقل:

اللهم أعذ قلبي من هوى طغى.

ومن لمة الخطايا.

ومن جذبة الطين.

فهي سبب الفوت.

وكل فوت من السبق، موت.

وبعض أسبابها، صحبة الآفلين.

حينها، لا نلمح ما فينا من عرج.

وقد قيل:

إذا تباطأ القطيع، تقدمت العرجاء.

فهل أدركت لماذا نخطئ التتبع للخطى؟!

إن التخليط، يتبعه التفريط.

والتبسط في النواهي، أول الشهوة، ثم يتبعها انطفاءات لا تعد ولا تدرى.

والاصطفاء يسبقه الصفاء، إن الاصطفاء لا يولد في فوضى الكلام.

ولا في فوضى النيات.

ولا في الصدور المنهكة من الوساوس.

فإلى الله نشكو.

هشاشة السعي وقلة الحيلة على المعالي.

وخيبةً مخبأةً في القلوب.

وفراغًا من يقين الأمنيات.

نعوذ بك من أن نضل الطريق، ونحن نظن أنا على وشك الوصول!

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾.

{وابعث فيهم}.

كان إبراهيم يهدينا الحب غيبًا بالدعاء، ويورثنا مفاتيح الرشد، يلقي دلاء الدعاء وفي رؤى الروح مدى.

كان إبراهيم الرائي، وفي عينيه يرى نبيًا آتيًا من الغيب.

يراه بعين قلبه، فالقلوب الصافية، لا تحجبها العتمة.

﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾.

يا الله! لما فاض القلب بالفهم.

سال بالوعي الدعاء والبصيرة، أن تخرج من حيز المكان والزمان، وترى ما وراء اللحظة.

ترى الحل.

كان دعاء إبراهيم، مثل رواء ونماء يختبئ في نقطة مطر.

وكلما نضج المرء، تكثف كلامه في القليل حتى تسيل من الكلمة معاني الأسرار.

هذا دعاء فيه أسباب الإمامة للأمة المسلمة، حيث يرتقي إبراهيم بنا من مقام إلى مقام.

من مرحلة الدعاء بـ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، إلى مرحلة صناعة إمامة الأمة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

يرتب لنا إبراهيم أولويات البدء، فالبيت دون معلم لا تكتمل غايته.

وتلك هي بصيرة السابقين.

إذ لا تبلغ الكعبة غاية معناها، دون مطلع الوعي، دون من يعلمنا الكتاب والحكمة.

يقف إبراهيم وحده في المشهد، لكن المبصر هو من يقف في القرار الواعي، وفي الرؤية المبكرة، وفي السبق منفردًا! فيخبرنا كيف يكون البدء في التغيير يعلمهم.

فيا رب! ألهمنا فهم الأنبياء، ووعي الأنبياء.

ترى، هل خط في اللوح أن العلم قدر الإمامة، وأنه معنى الولادة.

أي ولادة؟

الولادة الثانية التي تكون باختياراتنا، وبألوان ننتقيها من الأقدار، وتلك هي حسابنا يوم القيامة.

{يعلمهم}؛ لأن العلم روح مهمة الأنبياء.

ولقد رؤي النبي ﷺ في المنام يقول:

(إني خبأت تحت منبري طيبًا، وأمرت مالكًا أن يفرقه على الناس).

فتأول الناس المعنى، أنه العلم، وأن الإمام مالك بن أنس من سينفذ الوصية.

يتنفس مالك الرؤيا، ويلبي: لبيك اللهم علمًا وحكمة.

لبيك إجابةً لدعاء إبراهيم.

لبيك عافيةً من بلاء الجهل.

لبيك على خطى إبراهيم.

{يعلمهم}.

يلتقط السلف فقه الدعاء.

ويصبحون وصية إبراهيم.

فترى ابن مزاحم له مكتب فيه ثلاثة آلاف صبي، يدور عليهم يعلمهم القرآن والسنة، ولا يأخذ على ذلك أجرًا.

{يعلمهم}.

فكتب التاريخ، أنهم كانوا يجلسون طوال الليل يقيمونه بتذاكر الفقه حتى نداء الفجر.

وفي الليل كانت تلك صلاة السلف.

وكان الدعاء:

يا معلم إبراهيم علمنا، وأخرجنا من ظلمات الجهل والوهم، إلى نور الفهم.

ثم نرى ابن عباس يفسر معنى {السائحون}، بأنهم طلبة العلم، ويؤصل لمعنى عميق.

لن يأتي إليك من البر شيء ما لم تسعَ إليه، وما تبحث عنه، سيبحث عنك.

تلك سياحة لم تعرفها البشرية من قبل.

ويؤسس بذلك للرحلة في طلب العلم، فيبلغنا أنه يسير أحدهم لأجل معرفة حديث ما بين البصرة والكوفة مئات الأميال، ويطوف غالب العلماء في الأرض بحثًا عن العلم، حتى قال إبراهيم بن أدهم:

إن الله يدفع البلاء عن هذه الأمة، برحلة أهل العلم.

فمتى ستشرق أنت بالعلم، وتصبح للأمة عافيتها.

يرى ابن قتيبة نبي الله ﷺ في المنام يحمل صحيفةً؛ فيقول له:

يا رسول الله، ما في هذه الصحيفة؟

فيرد عليه ﷺ:

أسماء العلماء.

ليس في يد محمد ﷺ إلا أسماء من كانوا على خطى الأنبياء.

يستيقظ البخاري في الليلة الواحدة من نومه، فيوقد السراج، ويكتب الفائدة تمر بخاطره، ثم يطفئ سراجه، ثم يقوم مرة أخرى وأخرى، حتى يتعدد منه ذلك قريبًا من عشرين مرة.

كانت كل خاطرة يراها البخاري هبة.

فقد بلغه أن العلم وهائب، وأن الله إذا أحب عبدًا منحه الوهائب.

تبلغ مؤلفات الطبراني 75 مؤلفًا، فلما سئل عن ذلك قال:

كنت أنام على البواري -أي الحصر- ثلاثين سنة، لا هم لي إلا العلم.

فإنها قربة لله.

يا الله! لا يسرق العمرَ شيءٌ، مثل الغفلة عن المهمة.

مثل الانكفاء على الماضي ونسيان المطلوب.

مثل الموت مبكرًا والروح فينا.

فيا رب! اهدنا الصراط المستقيم.

فقد تعبنا من طول الطرق الفارغة التي تنأى بنا عنك.

تعبنا من عبادة لا تبلغنا.

وقد قالها سهل التستري:

(ما عصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل)، وكنت قادرًا على العلم.

فتنبه لما يسكن في داخلك.

واسأل نفسك:

أين أنت من ذاتك؟!

أين أنت من معنى دعاء إبراهيم؟!

اغسل نفسك من نفسك!

اغسل نفسك من جهلك!

وقل أنا لك.

فلا تجعلني أرتد إلى الجهل، فلا تجعلني في غيابة العماية.

وتنبه أن ما قبل الإسلام كان جاهلية الجهل.

يكتب التاريخ:

أن أحدهم يشكل عليه باب من العلم، فينفق ثمانين ألف درهم حتى يتقنه.

ذاك معنى الشغف.

والفؤاد يطلب ما يشبهه.

فاللهم أصلح لنا نور البصيرة، حتى لا يدوس العمر في شوك الجهل.

نعوذ بك من أن ننتبه للمهمة، وقد قارب الوقت على الانتهاء.

نعوذ بك من ثرثرة العمر.

وفناء الأوقات.

وغياب في الهموم.

وانكفاء على الأحزان التي هي من سعي الشيطان.

فما لهذا خلقنا!

إلهي! أغثنا بالعلم، فإن اللطف منك صلاح.

يا رب!

من استعد استمد.

فهيئ لنا الاستعداد، حتى يفتح لنا باب الاستمداد.

يا دعوة إبراهيم.

يا مسلم اليوم.

(اشتاقت إليك عجاف أنت يوسفها).

فلو تدري يا تائهًا، أنك أنت الدليل، لو تبغي.

لبيك اللهم لبيك

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾.

يا لسعة المقام! ويا لأفق المعنى!

تسرح أسراب الملائكة في الكلمات، ويذوب العمر شوقًا لمثل هذا المقام.

ولقد اصطفيناه، فقد كان إلى الله مهرولًا وملبيًا.

لبيك اللهم لبيك! بالعمر وبالروح وبالولد.

تلك تلبية إبراهيم، تلبية تشبه تسلق السماء وهي حبلى بالمطر.

لبيك اللهم لبيك!

فتنمو السنابل في صوت إبراهيم، وتكتظ المقامات.

كان إبراهيم يردد طوال رحلة عمره لبيك اللهم لبيك.

فترتفع التلبية في انعتاق تام من قيود الشيطان.

لبيك اللهم لبيك!

يرتفع الصوت نحو العرش، ويظل في ذاكرة الكون أبدًا.

لبيك اللهم لبيك! فلا شتات عنك.

كان والله ذلك استثناء، إذ هزم إبراهيم الهزيمة، حتى عجزت الفتنة أن ترد الخطو للقدم التي سارت للقدم التي تفردت حتى استحقت جوار البيت.

فلقد كان ترتيله طوال الهجرة لأجلك وحدك يا مولاي تقطع المسافات.

كان إبراهيم استثناءً.

فلم يكتب له أنه هم بالنظر للخلف في الطريق إلى الله.

فكان التجلي عليه، بما لا عين رأت من كرم الاصطفاء.

في ذاكرة الثبات أنت يا إبراهيم! وفي ذاكرة الفردوس، وفي ذمة الخلود عليًّا.

يشيب إبراهيم ولا يشيب قلبه، يبني البيت في آخر عمره.

لأنه ما شاب قلب شيمته السعي.

ونضرة القلب في همته، نضرة القلب في خفي نيته.

ولا يحيي الروح، مثل دوام الإخلاص في غيبة الشهود.

كان إبراهيم نبيًّا فتح الله له بجوده أقفال الدهر.

ومن اصطلح مع الفتاح، فتح له ما أغلق من الآمال.

(وكم في اتساع النيَّات من هدايا) وذاك سر إبراهيم.

﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ﴾.

بصيغة الماضي، التي تخبرك بعلم الله فيه، فاستحق قرب المعية.

ومن تحققت له سابقة العناية، عصمه الله من دنس الجناية.

وكل من دنا استحق القرب.

اصطفيناه، وكان الابتلاء فقط، كي يوقد زيت النبوة، وتنبت المقامات.

لذا قيل:

الاختبارات لا تغيرنا، بل تكشفنا، ولا يكتمل الجوهر، إلا بأداء فريضة العبودية لله.

ولقد كان إبراهيم يتوضأ من جرار الصبر في خضم المحن، ويؤمنا في الثبات.

ومثلك يا إبراهيم، يكتفى به إمامًا.

يا إبراهيم!

أنت درس الطريق.

وإنما يمطر الغيم، في الأرض التي تحسن في الله الظن.

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾.

فكان لله، (وما الاصطفاء إلا خلو الأيدي من الإغراء).

فانظر إلى قلبك ويدك، فأنت عبد لما تشتهي.

وخير العباد، الذي من عجزه انعتقا.

وتساقط القيد، مرهون بتحرير القلب.

(وما أبعد الغايات، عمن يغريه وسواس البريق).

لقد كان إبراهيم عبدًا حرًا.

وتلك هي معنى العبودية، لو تفطن الأمة.

معنى أن تكون لله.

أنت الحياة يا إبراهيم.

ولن يدنو منك التلف.

بصدرك ألف دالية نحو الله تتجه، لم يكدرك جزع ولا خوف ولا فتنة ولا هلع.

وفي كل خطوة، كان القلب يكتمل.

وقد سئل أحدهم:

أين أجد الكمال؟

فرد عليه:

في الخفيات من الأعمال الجليلة، فإن الله قد استأثرهم بها.

فافهم المعنى من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾، لماذا؟

لأن إبراهيم كان استثناء في معنى العبادة.

فقد كانت عبادة القلب فيه، صون العهد من أن تسقط الراية من فلسطين إلى مكة.

يتوق مسجد إلى مسجد.

وتظل روح إبراهيم بين المسافات، تنتظر منا زمن الفتح، تعانق كفه السكين كي نتعلم، أن الانكسار يبدأ حين نعجز عن الفداء.

كان دعاء إبراهيم فكرة الغد، كان موعد اللقاء بمحمد ﷺ في المسجد الأقصى.

وكان إبراهيم بقية الوصية للأمة في رحلة الإسراء.

فيا رب!

ردنا بالوعي إليك.

ردنا بالحب إليك.

ردنا بالصدق إليك.

أنت أولى بنا منا.

فرد علينا زمن الوصل.

فإن زمن الوصل يمحو زمن الانقطاع.

اعف عنا تلكؤنا.

فإن الوصل يغيب في إثم التردد.

واجعل عبورنا إليك خفيفًا.

(ومفاوز الآمال يبعد شأوها

إن لم تكن يا رب فيها زادي)

سلام على من رزق كمال الدعاء في طلب الوصل، وسلام على كل من كان على الخطى، وسلام على كل (من ألح على الله ففلح).

وعلى قدر سعة القلوب، يكون الامتلاء، ويكون الغدق.

ولقد سئل أحد الصالحين:

إلى أين يمضي الدعاء؟

فرد:

(إلى حيث وقت الله للأمنيات أقدارها).

وعلى قدر الرغبة، تولد الإجابة.

فتنبه، فإن ما في همتك بعض من أسباب الإجابة.

فتعلم دوام الطرق.

اجعل جوهرك على خطى إبراهيم، باحثًا عن الكمال لا متقفيًا للنقائص، والعمق إن اعوج، لا يولد خطًا مستقيمًا فتأمل.

واعلم أن الناس في خداع متصل.

الناس في غفلة الاعتياد.

الناس في زور الأماني، كأنما والله فرغوا من الحساب.

والله يصف إبراهيم، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

لأن الخواتيم، رهن البدايات، والحشر ميقات البوح.

وقد تذوب النفوس حينها عند فوت المقامات.

فهرول إلى الله ملبيًا، ومن عز عليه دينه، تورع.

ومن هان عليه دينه، تبرع بحسناته، ووقته، وكيس عمره.

فاسأل الله إقبالًا وقبولًا.

أن (القبول بشيره الإقبال).

فاثبت على الخطى.

وإذا لمح القلب جمال المآل، هانت عليه مرارة الاشتعال.

وكلما نكأ الجرح، فاحت الحقيقة! لقد كان صوت إبراهيم في التلبية استثناءً.

وكان معناه، أن يكون الصوت صهيلًا الفتح بعده.

ثق أن كل الحقائق، وإن تجلت لك، لا عبرة بها، ما لم يظهر عليك أثر منها.

واذكر أن كل لحظة فارغة اسمها عمرك.

فأنت الوقت لو تنبهت.

يعلو إبراهيم في التلبية، حتى كأن الشمس بين يديه تسأله سقيا النور.

يزرع إبراهيم في الألم حقول الثواب.

وبتوقيت الوجع، ينبض الأجر، ويكتب له بياضًا لا شائبةً فيه.

أسلم فأسلمت الخطى

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

كم بيننا وبين هذا المقام، يسأله فيجيب، بلا تلكؤ ولا تردد.

{أسلم}.

أسلم إبراهيم لله، فأسلمت له الخطى.

وانتهت الخطايا.

لم يجادل ربه في أقداره وسلم لأحكامه فانتهت الخطايا.

وصار الحب ملء المدى.

أسلم إبراهيم لله.

فلم يكتب عمره فيمن نضب.

ووهبه الله بركة بعد المدى.

أسلم.

فتسلم القرب.

ترى! ما القرب؟

أم تلك دهشة الأفهام حين تنكشف الحجب.

أسلم.

فتسلم إبراهيم الخلود.

ترى! ما الخلود؟

أتراه! الإبحار في زمن بلا مرفأ؟

أسلم.

فأبيحت له سدرة المنتهى وانتهى زمن الوجع، وذاق لون الجمال.

هناك حيث تريق الحور غنائها في مسامع الجنة، مثل فجر يسيل بألوان الشفق.

يشم إبراهيم الأريج في صوت الملائكة، ويرى المطر في همس التسبيح.

تفتح أبواب الجنة، فيفوح عبق الشوق.

يلمح إبراهيم الحب مزروعًا في الفردوس، حقولًا من الأجر على ما مضى يشربْ الشهد كلمًا طيبًا.

وعلى المنابر، الموعد.

أترانا نلمس الحقائق، لو صيغت في كلمات؟!

لا وربي، فالآخرة غيب يرى إذا انكشفت الحجب لمن اصطفى.

لقد هم إبراهيم بالسبق، فبادر.

ومن أراد المفاخر، لا يرضى بالصف الآخر.

كانت قدمه سابقة فاستحقت خلودًا في جوار البيت.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾.

كأن الآية توحي لك بالمراد.

أعتق ما أحببت، فإن الجزاء على قدر التخلي.

وتعلم فقه الترك لله، فبه يكون السبق.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أتيتك طوعًا وعمرًا شهيًّا، فقرب إلي كل المنى.

وقد كان، لأن (من يقترف حسنةً الوظائف، نزد له حسن اللطائف).

من يعبد الله بما يحب يوهب ما يحب.

قلب رضي بما ترك، وأفرد الله فما اشترك.

وطوى الفؤاد على معنى، (لن يسبقني إلى الله أحد).

يسطر القرآن نهاية الرحلة.

فيجفل الشيطان من ضفاف الضوء التي بلغها إبراهيم، فقد كان النور أقصى مما يطيق.

وعجز الشيطان أن ينال من عمرك يا إبراهيم شيئًا.

فقد كان عمرًا (ليس للشيطان فيه نصيبٌ).

كان عمرًا أسلمه وسلمه لله فتسلمه الله مقبولًا.

اليوم يوم العطايا.

اليوم.

يسير الحجيج على خطى إبراهيم، يقولون للدنيا: وداعًا.

فيفتتحون باب الرحيل نحو الآخرة.

الثياب البيضاء، التخفف من الحقوق كلها تحكي لك أن هنا نهاية المشهد

الحج يحكي لك خاتمة الطريق.

ها هم بأبيض الثياب يلوحون مسافرين.

يضمدون الحقوق بسؤال العفو والمغفرة.

فالرحلة لا تحتمل أثقال ما مضى.

النجاة في الرحلة فقط؛ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

لمن حمل قلبه صافيًا من أكدار الطريق.

لمن كان على خطى إبراهيم.

اليوم مع موعد كريم.

الآن، يتنزل الله.

فتتحير الكلمات في معنى التنزل ألف عام، ولا تدرك إلا ظاهر المعنى.

هذا أوان القرب.

هذا أوان التنزل الإلهي.

فخل الشواغل كلها.

فهنا المبتدى، الذي يبلغك سدرة المنتهى.

الآن، توقظ المآذن بعضها، وترهف السمع للتجلي، لزمان تحلق فيه الملائكة.

سبحان من يهبنا أزمان العطاء.

تحتشد الأيدي على باب الله، فما أشهى اليوم برد الإجابة!

ما أشهى الدمع! (ومن الشفاء تتدفق العبرات).

ما أشهى الدعاء!

والعافية اليوم أن يسمعك الله، أن يخصك الله بلطف منه.

أن تقول الإجابة لكل أمنياتك (آمين).

اللهم آمين.

في مكان ما يزاور أحدهم عن الجموع ويناجيك.

رباه! أنا الآتي من الغفلة.

أنا الآتي من الوحشة.

أثقلني الخوف مما تعلم، فامنن علي.

امنن علينا بالتوبة واكفنا كل ما نخاف.

يا مولاي!

هل يتكئ الحزين على غير الله، الحزين مثل طائر جريح هده الألم.

كلنا حزانى على بابك فقراء ومحتاجون.

فيا لله!

لا حزن لنا اليوم إلا المغاليق من الأمنيات، فاكسر لنا أقفالها.

يسير الحجيج على بساط الوعد بالموعود، ويسألون...

يركض الزمن بالعطايا.

وما أقصر المسافات اليوم، لمن أدرك الإجابة.

ما أقصر المسافات للأحلام، لمن أدرك الإجابة.

يقف موجوع يبكي يهزه الحنين.

حتى كأنه جذع حزن تساقط منه الدمع مرًّا.

وفي مشرق الأرض.

صوت ينادي يا الله! أرفع قلبي وكفي إليك.

قد أهلك الذنب زرعي وضرعي.

فاجعل عفوك يا مولاي بيني وبين ذنبي.

إليك يممت روحي إليك.

يا من بيده غاية العتق! اعتقنا من ذنوبنا ومن نيرانها.

هذا أوان التنزل الإلهي، ولا تملك العين إلا ارتعاش أهدابها.

فاعف اللهم عن كل المثقلين بالتفاتات النيَّات عن الله.

عن كل الذين أطالوا المكث على حافة السقوط!

انتشلنا يا الله من هاوية البعد.

يا مولاي! نبتعد عنك، فنحترق.

لا تزاور الشمس عن من لم يؤوِهم كهفك.

فآونا إليك.

أعوذ بك من البعد عنك، ومن خطى لا تبلغني إليك.

فوا أسفاه!

إني كنت أحسب أني على الطريق إليك، والطريق ينأى بي عنك.

اهدنا إليك ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

يا رب!

هذا أوان التنزل الإلهي.

فعفوك عن الخطايا المنسية تهمس من خلفنا وبين يدينا.

عفوك إذ أين يخبئ المرء صحيفته، إن كان أمر الله أن ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

فيا الله! حينها إذ تفهرس الذنوب بين النسيان وبين الغفلة.

وينادى على ذنوب نسيناها.

اعف عنها قبل أن نلقاها.

ويا الله!

إذ تفهرس الذنوب بين الحقوق والمظالم.

ويا الله!

إذ وقفت لك روح بين عبق الجنة وبين غسق النار، ولا تملك لحقها ثمنًا.

ارزقنا رد الحقوق إلى أصحابها، وسلمنا من المظالم.

ويا وجع من يبعثون، وفي أيديهم أشواك الإثم.

مرتبكون في شهواتهم.

وفي الأقدام، خدر الذنوب.

أعنا على ترك كل ما أثقل الخطى في الهرولة إليك.

تطل سوءات النزوات يوم القيامة، مثل عتمة موحشة، فترى فلان في عتمته يسعى.

وتفتح النيات المطوية، وتفوح الروائح.

فقد كان العمر بين إقدام وإحجام.

عمر ليس فيه إلا ما سعى.

رباه نتوسل إليك أن تجعل السعي مرضيًا!

يا الله! يا ريح العرق يومها، إذ يفوح على عتبات الحساب حسب الأحوال.

ويا لله! هل للحريق ظل؟ هل للحريق فيء؟

يا وجع الحقائق يومها!

يا رب كل الشهوات تقود إلى حزن الشهوات!

وإذا نبت دبيب الرياء في الزرع، لقي حتفه.

فعفوك اللهم عن تخليطنا.

وارتق بدموع التوبة جراحنا.

ولقد انتبه أحد الصالحين لذلك لما قال:

(ومن لا ينصدع قلبه من عثرته، فذاك دليل على فساد قلبه).

عفوك يا الله!

فإن بنا ما يكفي من التعب.

وبنا ما يكفي من أسى المحن.

فعلمنا يا الله كيف نحتمل حكمة الأحزان إذ تصنعنا، كيف نتبتل في محراب الثبات وأنت تختبرنا.

يا رب!

تفيض أمتنا بالقلق، ونكاد نسقط.

خذ بأيدينا خارج المتاهة.

أدركنا... فقد استوت الأمة على الجرح.

يا رب سئم اللاجئون حشرجة الخيام.

يا رب أنت للأقصى أول ما يرجى وآخره.

اجعلنا إجابة إبراهيم.

أضئ لنا أرواحنا، واجعل منا نورًا.

واجعل عمرنا مباركًا مقبولًا.

نعوذ بك من السنين العجاف.

ونسألك أمان الضفاف.

نسألك عمرًا كل غيث وفضل.

يا رب!

لا تبعثر أمتنا يا رب بين الحدود وبين الخيام.

اللهم كلت المعاذير منا، وهذا أوان التجلي منك.

فاجعلنا في مقام، ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾.

واجعلنا في مقام، ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

هذا أوان الحب يا رب.

فلك القلب.

ولك النبض.

ومنك القرب والأمل ومنك الإجابة.

أمة محمد إجابة إبراهيم

اليوم يرحل الحجيج إلى صحراء تحتضن النور.

إلى صحراء فيها خطى إبراهيم.

ينهض الحجيج فيها مثل السنابل، كل خطوة بعشر أمثالها، والله يضاعف!

تحتشد الأشواق على مشارف طيبة، وينهمرون في الحنين للرسول ﷺ.

تشتد الخطوات نحو الروضة، نتعثر في خطايا ضعفنا.

ويلقي الحجيج رحالهم في الروضة.

تصطخب الأصوات في نحيب الحب.

وتعبق السماء بدعاء شجي.

تتنفس الروضة المباركة.

وتفيض بركة النبي حيًّا وميتًا.

هنا مراعي الأجر.

هنا الغنى.

هنا النحيب، حروف تكتب لك نص القبول، فيا لله!

هنا.

يسعى نور الحبيب ﷺ أبيض يغمرك، حتى يكفيك حزن الليالي التي أثقلت كاهليك!

هنا البركة الممدودة {رطبًا جنيًّا} لكل من قال: صلى الله وبارك عليك يا حبيبي يا رسول الله.

السلام عليك يا رسول الله.

بيا النداء التي لا رثاء فيها، فقد أديت الأمانة، وبقي علينا حسن الوراثة.

السلام عليك يا رسول الله! ومثلك لا يهال عليه تراب النسيان.

فقد كتب الصحب كل همسة، وكل حركة، وكل إيماءة عين.

كانت سيرتك تحمينا من المغيب، لكنا نسينا يا رسول الله، أن قدر هذا الشرق هو الذبول إن لم تكن أنت الدليل.

السلام عليك يا رسول الله.

يا من جعلت من المسجد همزة وصل لكل التائهين المنقطعين عن الله، فآويت فيه أهل الصفة، وربيت فيه شباب ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾.

شباب... لا تعرفهم الأكفان، بل تعرفهم خرائط المدائن، ينبتون فيها فتحًا لا يغيب.

يحن الجذع إلى يد جعلته غصنًا خالدًا في ربيع الجنة، وقد كان عمره على أبعد مدى أعوامًا قصيرة.

وكذا كان الشباب في كفك لا حزن فيهم ولا هزيمة.

كانوا شجرًا تصنعه أنت، كي تقاتل به شجر الغرقد الفاسد، وكان الشباب معك لا يهرمون.

أكانت تلك بركتك التي تمس القدر، فتنتهي بعدها مواسم القحط، أم كانت قانونًا تعلمنا به معنى (نصرت بالشباب)، حيث لا جدب آناء المواسم كلها، إذ كان الشباب على خطى الأنبياء؟

السلام عليك، والمكان كله يضج بذكريات الحجرات، يوم كان صوت الحكمة في الحجرات مثل صوت المطر.

صوت، كان يغسل الدروب الممتدة إلى عوالم الفتح الإسلامي.

كانت الحجرات مستورةً في بهاء الرعاية الإلهية، حيث المرأة التي توقد لنا تنور التغيير، لا تمسها أعين العابرين.

كان للمؤمنين أمهات يلدن للأمة معانيَ خصبة، وكان النور يسعى من بياض الستر، يكشف لنا كيف تنهض الشعوب من البيوت العامرة.

تحمل لنا عائشة -عليها السلام- دلاء الحديث المحمدي.

تسكبه مثل ماء لا يغيض.

وتعلمنا، أن محمدًا ﷺ كانت عينه دومًا على السماء.

لذا، لم ينشغل بصوت الخراب، وظلت عائشة في عينه نهرًا ستحتاجه الأمة ذات يوم، فظل يسقيها من بحر علمه، حتى ارتوينا بها جميعًا.

هكذا كانت المرأة في عين النبوة.

فسلام عليك يا رسول الله!

تعبر حفصة -عليها السلام- من غضبها إلى صدر الحبيب.

تحط على باب قلبه، وتفيض بكل عتبها.

ويسمع عمر -رضي الله عنه- الصوت عاليًا، ثم يرى الحبيب ﷺ كيف يطفئ جمر الجراح.

ويتعلم عمر، أن الرعود في البيوت تقتل للأمة كل الوعود.

نحن نعبر إلى مدائن الجنة، وإلى زمن الفتوحات، إذا كنا مدثرين بدروع بيوتنا.

ربما لأجل ذلك جاءه أول نداء في بيت خديجة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

إذ البيوت التي لم تتدثر بالدفء، لا تملك ناصية الأحلام.

سلام عليك يا رسول الله!

يا من لا يكفيك الحنين منا ولا بكاء الحجيج.

هل يملك الحجيج إلا الدموع؟

فهذا زمن استثنائي يا رسول الله.

حيث لا تعد الجنائز.

ولا مراسم لدفن الموتى.

هذا زمن استثنائي.

حيث تخبئ الأمهات دموعهن لموت أبشع مما يستيقظن عليه.

هذا زمن استثنائي.

حيث تحتار أقلامنا بأي العواصم نبدأ كتابة نعي المساء.

يهتز المسك في الروضة بهيًّا، تبسم الملائكة للحجيج، تهمس المدينة للقادمين:

لا شيء ينفي الخريف عنكم غير هدي محمد، {فاتبعوني}.

يلتفت الحجيج إلى المعالم.

هنا ملامح النبوة.

هنا كان محمد ﷺ مصليًا عابدًا.

تتفطر قدماه.

وكان قلبه لا ينام.

هنا.

مضت به جارية سوداء، فما تلكأ في المسير.

هنا.

أصغى لصوت خولة تشكوه ظلم العشير.

هنا!

انتصر لبلال، إذ عيره أبو الدرداء -رضي الله عنه- بأصله، وأعلن أنه ما زال فينا جاهلية معتقة!

هنا.

صوت الوحي يعاتبه ويقول: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾.

فتدرك الأمة، أن لكل كتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾.

وهنا.

تشهد لك المدينة، أنك كنت دومًا تبتسم رغم الوجع.

لم تكن (صخابًا ولا لعانًا)، وكان لسانك صموتًا.

كنت كلمة طيبة، ودعاء بالخير، وأذنًا للمتعبين، تسترهم ولا تفضحهم.

لكأننا فارغون من سيرتك نحن، مثل خيط انقطع، فلا ينسج شيئًا.

فارغون من هديك، ومتشبثون بمسواك ونافلة.

فارغون من سنتك في أخلاقنًا، في بيوتنا... في زواجنا... وفي سلالنا حين نغادر الحياة.

مشتاقون إليك.

لكنك أنت مشتاق إلى أن نغدو نجومًا، مثل صحبك، فينتهي الزيغ فينا.

أنت مشتاق إلى رعشة الخوف من الذنب فينا.

أنت مشتاق إلينا، نمشي إليك بلا وحل الذنوب.

أتقبل منا وعدًا:

بألا نسرف في الاغتراب عنك، وأن نقرأ السيرة، عسانا نفهم لماذا احتفى بك الكون في معراجه.

عسانا نرى، لماذا علوت حتى بلغت صرير أقلام وحي الإله.

عسانا نفهم، معنى الثناء لك ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

يبتسم لك النبي ﷺ يوم تعثر على هديه.

لأنك حينها، عثرت على الطريق إلى حوضه.

والطريق إلى الحوض، ممتد إلى النعيم.

على أستار الكعبة

يطير الحمام حول الكعبة فينبجس الفرح، ويبصر الحجيج خطاهم إلى المطاف.

وتهمس لهم مكة: تهجى رحلتك أيها الحاج من طواف القدوم، فهذه شعيرة أول الوضوء فيها، هو طواف القدوم.

يتأجج النور هنا حتى يتوهج، ويهديك الله في أول لقاء سر البداية.

فهنا.

تغسلك الكعبة.

تعتقك من ذاتك.

وترى أجنحة الحمام في قلبك.

ترتجف حين تطل عليك الكعبة ببهائها، ثم تبزغ فجأةً، مثل نجمة، ويتصل بالله الحديث.

تنهمر بلا وعي على أستار الكعبة، وتخلع عن كتفيك الخوف ووسخًا قديمًا.

هنا! لا ترى في المطاف سواك، فالكل يلهث بالشوق، وعلى باب الكعبة. يرتعش صوت الحجيج بالدعاء.

في غمرة الوجد يبكون.

يشربون دموعهم في توسلاتهم، ويغص (الملتزم) بالأمنيات.

لا يتقي الحجيج شمس المطاف، الحجيج مشغولون بالإجابة، مشغولون بالله عن أنفسهم.

لا دلالات للكلمات، لكن الأصوات الخفية توحي بنشيد واحد، تنزوي فيه الحروف، وتتشابه فيه الآهات.

في طواف القدوم، تستلم الحقيقة.

انظر! قلبك متهدم، وجدار روحك {يكاد أن ينقض}، يقيمه الله، ولا يتركك تقتات الوجع.

تدخل إليه بوعاء فارغ، يمتلكك جوعك، وتظل عينك إلى الله ممدودة.

ينسدل الستار على كل الوجوه، فلا تبصر إلا حروف الجرح في صوتك.

هنا، رائحة الحقيقة، حيث تتكئ روحك على وعد المغفرة، ولا تنشغل بسواك.

طواف القدوم يقول لك: إن المشغول بالله عنه لا يشغل، فكيف نمضي أعمارنا نشد السهام على بعضنا.

ينتصف الوقت، أو ينتهي ونحن مشردون بلا رشد.

نتتبع رقاع غيرنا، وننسى أننا بلا ثوب.

كيف يحتشد حولك كل الخلق، ومع ذلك لا تشم إلا رائحة الرماد من حريقك، وتتوسل إليه أن يطفئ عنك النار.

آلاف يمضون في قطر دائرة يطوفون تتسع لهم.

فلما لا تتسع أوطاننا، ولم لا نتسع لغير ذواتنا؟

يتسع لنا المطاف بألواننا، ومذاهبنا، وتباييننا، فلم نتخاصم من أقصى المشرق حتى أقصى المغرب؟

ولكننا حول الكعبة نقتسم الخطوة بيننا.

نقتسم أستار الكعبة بين أحزاننا، ونهمس بالبسملة وادعين، فلا وسوسة، ولا غير إيقاع الدعاء والصلوات.

نحن في المطاف، نكتشف أن الغفلة عن الله قد هدمتنا، ترتفع فينا ثرثرة الطين فنشقى.

أو ننسى، أن في البيدر من الشوك ما يحتاج مناجل العمر كي لا يزيد.

ما لنا مشغولة أعيننا عن الله بالبحث في تفاصيل من حولنا!

ما أعجب-طواف القدوم!

إذ يعلمنا، أن عمرك تصوبه نظرة.

أن تاريخك مكتوب في وجهة عينيك.

ضم القبلة، ولا تلتفت إلى غير الصدئ المنثور في دربك، ولا تكن مسكوبًا في الهم على ضفاف غيرك.

واخلع عن قلبك الانشغال بغير الله، وارفق بمن حولك، ولاحق خطوة الخلق بنعل يحميهم من عثرة الطريق.

ها هو محمد ﷺ يمنح للأمة كلها إذن العبور إلى سعة الله ورحمته، ويعلم الأمة فقهًا عظيمًا، فقه (لا حرج).

لا حرج على الأعرابي إذا لم يلتقط كل التعاليم.

لا حرج على الأمي إن أخطأ في إشارات الطريق.

لا حرج على الشاب إن التبست عليه الدروب.

إنما الحرج علينا، إن لم نعلمهم كيف تسرج القناديل.

يرفع النبي ﷺ صوته (بلا حرج)، ويعتقنا من محاكمة بعضنا لبعض، ويعلمنا كيف يفيء المسيء للمحسن.

ويؤوينا تحت عباءته، فنورق بفقه المناسك.

يسيل العرق في ثياب الحجيج، ثم يتبخر هناك.

يرحل إلى يوم القيامة، ثم يتجمع غيمًا باردًا.

العرق في القيامة، يصبح خريرًا حانيًا لا يكف.

تنفتح الحقول في مكة.

تنبع زمزم، وتتفتح في داخل الحجيج.

تورق الكعبة بالجمال، وترتبك الأيدي: من أين نبدأ يا الله!

من أين، ونحن الفقراء لكل هذا الفضل.

يخلع الحجيج ثياب الحزن ويرتدون العطايا.

الليل في مكة دافئ.

الليل في مكة وافر بالدهشة، الليل في مكة مملوء بالبوح.

في الحرم تصبح الأحلام طرية، وتبعث فيها الروح.

وعلى باب «الملتزم»، ينقش البكاؤون بحناء دموعهم نصوص العشق.

وحول الكعبة، تقرأ أيامك، وخطوط حياتك في كفك الممدودة للسماء.

فقط، اغسل يديك بزمزم من خيبات الذنوب.

واعلو إلى العرش بكفيك وقل: يا كريم.

ثم ألح في الطلب، أن تنغلق المتاهات، وتنفتح لك كل أبواب الجهات.

ليس عليك حرج، لو تدفقت دموعك وأنت على ضفاف الحرم.

ليس عليك حرج، إن طال ارتماء المدامع في السجود حتى ينادى عليك بالجواب.

ليس عليك حرج، لو تفيأت الأستار، وجلست تحت الميزاب فقيرًا تسأله، أن يسقي روحًا ذبلت من كثرة في الخطايا ما بذلت.

ليس عليك حرج، لو وقفت عند المقام وقلت لله:

هب خطوتي مقامًا، فقد أسرفت في الغسق.

ليس عليك حرج، لو كانت الخطوات دمعةً دمعة، وابتل المطاف.

ربما حين تكتمل الأشواط، يكتمل لك النهار وينتهي من عمرك عذاب السفر.

ليس عليك حرج.

إن اعترفت ثم اغترفت، حتى ارتويت من رحمة الله.

ليس عليك حرج.

لو طاف قلبك بالبيت سبعًا، ثم صليت عند المقام وقلت:

«يا رب هذا قدومي عليك، فنح عن وجهي كل الجهات، واجعل مرادك فينا مرادي، وكف عن عيني غير رؤاك».

مكتبة
t.me/soramnqraa

زمزم بركة هاجر وإبراهيم

يا للحظة الاقتراب من صوت زمزم وهي تسيل!

ويا للبركة إذ تتدفق من زمزم في البيت الحرام في زمن العشر من ذي الحجة!

هنا.. تتضاعف البركة حتى تسكن الحجيج، فيعودون مباركين مبللين بالرحمة.

يغمسون أيديهم في زمزم وينغمسون، فيغنمون ويتمنون.

فيا الله!

يا الله كيف تكون ضفاف الأحلام بعيدةً! فإذا انسكبت فيك زمزم، تناولتها كأن حبال الدلاء في زمزم مشدود بها الدعاء.

في مرح النشوة يستظلون عند أكواب زمزم.

يطيلون المكث ويحكون للماء بكل اللغات أسرار الحاجات.

يودعونها في الماء المنساب على مهل في الأفواه.

ثم ينتظرون تنزلها من اللوح المحفوظ، فقد حركوا سلسلة الإجابة.

ينبتون في الماء المبارك، وتنبت لهم الأمنيات.

فهنيئًا لمن انزاح دربه نحو مكة، هنيئًا فقد طويت له إلى القرب المسافات!

هنا الوجد!

وهنا كل ما يتمنى الحاج يجد، هنا يفك قيد الأسير.

وهنا يمحى آثار الضياع.

وهنا، كلما وقعت قطرة على قطرة فارت زمزم بالبركات.

على حافة البئر المباركة، جلس ابن حجر العسقلاني وقال:

(شربت ماء زمزم لأصل إلى مرتبة الإمام الذهبي في الحفظ) فبلغها وزاد عليه.

أي عمق هذا وأي أفق في الدعاء.

وجلس بعده السيوطي، على نية أن يبلغ في الفقه مرتبة الإمام البلقيني، فبلغ من العلم مبلغًا عظيمًا، وترك للأمة مؤلفات بلا عد ولا حصر.

كأن السيوطي كان يشرب زمزم، ينوي بها أن يظل عودًا أخضر.

ولما سئل ابن خزيمة: من أين أوتيت هذا العلم؟ قال:

«إني لما شربت ماء زمزم سألت الله علمًا نافعًا».

سكب جرار زمزم في فمه، فانسكب له علم الحديث ولم تغرب شمس ابن خزيمة بعدها أبدًا.

وشربه القرطبي لحفظ القرآن، فتيسر عليه في مدة وجيزة، وقد كان يثقل عليه من قبل.

وشربه الحاكم للتأليف، فكان من أجود الناس تصنيفًا وتأليفًا.

وذكر في سيرة ابن الجزري، أن والده مكث أربعين سنةً لم يولد له ولد، فحج وشرب ماء زمزم بنية أن يرزقه الله ولدًا عالمًا، فرزقه الله بمحمد الجزري، عالم القراءات الجليل، الذي تلقى علمه مئات الآلاف من المسلمين.

وكان ذلك بعض أسرار زمزم.

وكان عمر بن الخطاب يشربه ويقول:

«اللهم إني أشربه لظمأ يوم القيامة».

حتى يبرد اللهيب، وتبدد زمزم كل الحريق.

على حواف البئر، همس السلف بخفي الدعاء، أن يبلغهم الله ما فوق السحاب.

فيا لعظمة الحاجات حين تبزغ، فتجعل من قطرات زمزم مطرًا لا ينفد.

أولئك قوم، كانوا يحصون أمنياتهم، ويصنعون من رشفة الماء معجزة الإجابة.

المعجزة ليست في أن تنال ما تتمنى.

المعجزة، أن تسأل ما لا ينقطع.

فيا قلب الحاج.

حُمْ حول البئر، لعل نيةً تقع على نية فتتشابه النهايات.

تتخافت أصوات الحجيج عند زمزم، كأن الضباب يستر أصواتهم وهي تبتل بالبكاء.

يخبرون الله بكل شيء ثم يغسلون بقايا أرواحهم بما تبقى في الأكواب من ضوء الماء.

ما أجمل زمزم تتسع لنا ولا تضيق.

نلقي في بركتها لغةً مليئة بالأمنيات الثقيلة، فلا تغور، بل تفور وتزيد.

ما أحن زمزم!

تمتد إلى كلماتنا.

وتتناهى إلى عمقنا، ثم تضمنا حتى نذوب فيها، كأنها هاجر يوم ضمت زمزم بيديها، خشية أن تنقص فزادت على بركة الماء بركة يديها.

يجلس الحجيج في كل رواح إلى أباريق زمزم المنثورة، كأنها لحظة من مشهد الجنة، حيث يطوف على المؤمنين ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

يتضلعون من زمزم، فيتسعون، وتتسع لهم المدارات، فلا شيء بعد اليوم مسدود!

يقومون وقد علق الماء بالأقدام، تتسلل القطرات في مسامات الأجساد، ويرتدي الحجيج ماء زمزم.

كم خطوة في العمر تحمل ندى زمزم!

كم خطوة في العمر مبلولة بالبركة!

«ألا يا ليتني حصاة في طريق قدم اغتسلت بماء زمزم».

يا للبركة ترفل في المسير!

يا للبركة وهي تصنع لك خطوة البدء، فلا منتهى!

ويا للود الإلهي!

إذ يستقبل الله عباده في بيته بشربة ماء تسترهم من العراء.

يا للود الإلهي!

إذ يهمس الحاج في الماء، فتصير الأمنية طيرًا، ويرفرف الدعاء روحًا، وتلتقط الأحلام.

يا للود الإلهي!

حين ينتبذ الحاج قصيًا عن أهله؛ فيرده الله مضاءً بقناديل البشارة والعطاء!

ويا لأهداب العيون!

التي رأت من ربها ما يحيل المرارة نعيمًا وريًّا.

فلا تحرم إلهي من تمنى.

ولا تمنع إلهي أي صب.

فهل لي رشفة منها قريبًا، أداوي مهجتي وأبل قلبي!

فحسبي جرعة أطفي أواري.

وأنفع غلتي وأزيل كربي.

سفر كله إياب

يلمُّ الحجيج البياض في ثيابهم، ونشوة الفرح، تلتمع في العيون.

تسافر في ثيابهم ذكريات النبي ﷺ؛ إذ أهل حاجًّا على سنة إبراهيم عليه السلام.

هنا...

تتكثف الصور، وتفيض أصوات من كبروا قبلنا.

تلتئم كأنها لحظة واحدة، حتى كأن في الحجيج أنفاس مطايا الأنبياء تتهادى صوب البيت الحرام.

تبدو القوافل متعبةً.

لا بأس، فهذا سفر كله إياب، سفر... كله لقاء!

سفر، لا اغتراب فيه ولا عذاب.

يشد الحجيج ثيابهم، على وعد أن تحل الثياب بشفاء أبدي.

وعلى وعد صوت القبول.

حج مبرور، وسعي مشكور، وتجارة لن تبور.

يختار الله لهم لون البياض في شعيرة، شرط القبول فيها ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾.

فهذه رحلة منك إليك.

رحلة الكشف عن مدى التلعثم فينا.

عن من ينثر الصبح من شفتيه دومًا.

وعن من يبتدر الجدب يحكيه كلامًا.

الشعائر جاءت.

كي لا نحمل الموت كلامًا في أفواهنا.

كي نكتشف كم نملك من الماء والعشب في حمولتنا.

وكم واحد منا، يحسن الصمت الذي يحيينا، إذ بعض الحديث جراح.

لون البياض مقترن بـ (لبيك اللهم لبيك)، وكل صوت منقوص منه (لبيك)، فهو صوت هزيع الليل.

فما التلبية؟ أتراها بياض الصحيفة عما سوى الله.

يسمع الله التلبية، فهل يسمع معها خطواتنا ترحل عبر التراتيل إليه، فقط إليه؟

ترى هل يخلق هذا السفر فينا الصحوة؟!

ترى! كم أكلت طرقات مكة من أقدام الحجيج؟!

أهذا يكفي، كي يهدي الله بعدها مفاتيح القبول، أم أن الله يريد من الأقدام إقدامًا، ومن التلبية أن تصب فينا تربية؟!

إن الدرب من الشعيرة إلى المعنى، طويل، وهذا ما يريد الله لك أن تقطعه.

يرتفع صوت الحجيج، وتتكرر التلبية في غاية مقصودة من الشريعة؛ أن تمتلك الذاكرة عبارة:

(لبيك اللهم لبيك).

تنساب أحرف الكلمات من كثرة الترداد إلى الوعي الجماعي، وترسل الأسئلة إلى عمقنا:

هل لبيك اللهم لبيك تشغلنا، حتى تسحبنا إلى انسجام مع الله لا يفلح معه ألف شهوة وشهوة، وفوضى أخلاقية في تكديره؟!

انسجام مع الله!

تتهاوى أمامه معاركنا الاجتماعية... جدالنا... لغونا... وفوضى ألسنتنا؟!

ترى! كيف يمتلك الحجيج ألسنتهم؟!

كيف يتحاشون الكلمات ويهربون منها؟!

كيف يخشون أن تسقط كلمة على الثياب البيضاء، فيلتمع السواد وينتبه الناس؟!

كأن الكلام إذا اعتم، ظهر في الثياب، وأشار إلى صاحبه قائلًا: هذا عبد باطنه ليس كظاهره!

وحينها ما قيمة زينتنا الخارجية، والله يريد زينتك الداخلية!

هل تخيلت ذات يوم، أن الأعمال عند الله ألوانًا؟!

رب كلمة، تبعث يوم القيامة بلون النزيف، لشدة ما أثخنت من الجراح فينا!

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾، لماذا؟

هل هذه دروب عذابنا التي توقفنا على هاوية الجحيم كل ليلة؟

في هذه الأرض المسكونة بضجيج الكلمات، يأتي الحج ليقول لك:

لا ترحل إلى الله بصحيفة مثخنة بجراح اللسان!

لا ترحل إلى الله بعمل واهن، منضوب من حقوق الناس.

بعض الكلم فجيعة يوم القيامة.... بعض الكلم يقودنا إلى الحريق.

إن مهمة الشعائر، أن ترفع لك الكلم الطيب، {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه}.

كأن الكلم الطيب، يتكئ على العمل الصالح، فإذا رفعه ارتفع!

فيا رب نعوذ بك أن نمتطي المطايا إليك، ثم نتوه عما تريد منا إليك.

خارطة الحشر

هل هذه شعيرة الهجرة إلى زمن القيامة.

هل هذه {أيام معدودات}، جاءت كي تختزل لك كل خارطة الحشر.

«لبيك اللهم لبيك».

يوحي لك الصوت بأن القوم ابتدأوا رحلة الحساب، حيث لا غفلة في الخطى المتجهة إلى المصائر.

يبعث الناس، وقد هيأت لهم السماء مساراتهم.

شيء ما، كان يترسب هناك من سعينا، لكأننا نقبض خطوة النهاية التي ابتدأناها في زمن الأرض.

فيا للذكريات!

حينها، كيف تسترد الألم، حتى كأنه الساعة الساعة!

ويا لله!

كيف تستل الصحائف كل هذا الحشد من التفاصيل المنسية.

في الحشر.

يرتجف الناس من ذكرياتهم، يتمنون لو تصمت في الحشر.

تنفي الأرض زيفها، فيعلو زبد الكلام، وتكشف حمولتنا، ليرتد إلى الناس ذلك كله، حزنًا لا ينتهي.

فيا للروح! إذا عريت من خباياها.

وهوت صورنا في عتمة السوءات.

وانكشفت الأجساد في تماهٍ عجيب، بين كشف المخبوء، وبروز المعلن!

«لبيك اللهم لبيك».

يا لصوت الحجيج وهو يحكي صوت الوجوه يوم القيامة، تكدست بالخوف تنتظر المصير!

ويا للهفة!

حين يحمل كلٌّ نفسه إلى الله بين يديه.

يحمل مغزله الذي أبرم به كل نسيج حياته!

في يوم الحساب.

تقصر المسافة بين الخفي في أعماقنا، وبين المسطور في الصحائف.

ملمومة كل التفاصيل، حتى كأنها قيد وثيق.

يشعر المرء كأن أيامه سقطت عليه، وكأن حكاياته هي المعنية بقول الله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾.

يبحث الحجيج عن شجرة.

عن ظل خيمة.

عن فيء حانٍ.

فيا ويح قلبي!

إذا كانت أشجارنا في القيامة أقصر من أن تظللنا، وشرد الغيم عنا؛ فلا سقيا.

وبقينا في الهجير.

ما الحج إذًا، إلا مشهد الحشر نحتشد فيه، تتلاصق الأجساد في الحج، وتئن الأماكن من كثرة العباد.

ويتهادى الحجيج على المطايا.

وفي الحشر.

يسوق الناس أعمالهم، مثل نياق ضروعها لا تدر الحليب، فقد جفت بالعثرات.

كيف تبعث الأعمال باهتة، كأنها أعمال صماء.

يعلوها غبار الحيرة.

يحملونها، مثل أعواد يابسة شاخت بالخطايا.

كيف!

وغيرهم في حقول السنابل يحصد، ففي الحشر، لا قمح إلا في تنور الصالحين.

يقلب الناس بين أيديهم الأحزان، يقلبون المسغبة، يقلبون الصمت العقيم.

يبدو اصفرار الشفق في ملامح أعمالهم، ويرتعش الجواب على شفاههم من ثقل الأحمال.

ثمة أقوام قد ابتدأوا الخلود، ينثرون صبحهم من الصحائف، فقد كانوا يخبؤون الشموس ليوم العتمة.

يسكبون أعمالهم في الكؤوس تعبق ريًّا.

يتمنى القوم بعض مكانهم.

هيهات هيهات!

فقد تسنموا شاهقًا من العلو من بواكير أعمارهم.

يبعث الإنسان بحقيقة الطين فيه، ويرى نفسه في القيامة بناءً ينهار، إن لم يكن قد أسس على التقوى.

كل عمر بلا التقوى، عريان، هذا عنوان الرحلة، وفي القيامة البرهان.

وما سوى ذلك، فأعمال لو نطقت في الدنيا لقالت لك: إنني وقودها، وإنني بعض الشرر.

ما المسافة بين الحج والحشر؟! أهي يقظة قلب.

أم هي انتباهة روح، تنشق لها حجب الغيب، فترى وحشة الذنوب في أرض المحشر، فتعاجلها اليوم بتوبة تمنحها انعتاقًا.

يشتد العطش بالحجيج في مناسكهم.

وفي الحشر، يشتد الجفاف.

ينبش الناس في كثيب المحشر، فلا يجدون إلا السراب.

يا أهل المحشر!

هذا سراب وُلِد من أزمان سحيقة، وُلِد من جفاف قديم.

يلتاع الناس من الحقيقة المعلنة، إذ لا شيء يغيب في مدافن الزمن.

وفي مكان مرئي، تهب على المحشورين في ظل العرش نسائم الرحمة، وتهجر من تبقى.

ينصب الحجيج خيامهم، يشدونها... ويلجمون الريح؛ أن تعبث بها.

وفي القيامة، تقوض خيام الشيطان، تمزقها حجارة الرجم من أعمال المؤمنين!

تصبح أشلاء، فيا خسارة من بركت رواحله عند خيام العدو في الأرض!

ماذا بقي له؟!

يجمع الحجيج الحصى، ويرجمون بها الشيطان.

وفي عرصات الموقف، تكثر حصى الآلام في طرقات العاجزين عن الرجم في دار الابتلاء.

في الحج، كل شيء في الفضاء المكشوف، منى... مزدلفة... عرفات... السير في فجاج مكة... وكذا يوم النشور.

فيا للعجب!

إذ ترد آيات الحج في سورة أولها ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾.

ثم تكون الوصية في زاد الحج هو ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾.

فيا لتشابه الرحلتين في الزاد والمآل.

فما التقوى؟

التقوى هي لون الوضوء، إذ يطفئ الشهوة الثائرة.

هي قول السلف:

إنك لا تنال ما تريد من الله، إلا بترك ما تشتهي.

هي بيعة الروح، ألا تخون الله في سر، بل تصنع معه عهد الخبيئة!

زاد الحج التقوى.

ولا يقدر على التقوى، إلا من يبنون محاريبهم داخل السريرة، حيث لا يصلها الشيطان!

معنى الحج

يطرق المتعبون باب الكعبة بلهفة الرجاء، أن يملأ الله بالعفو الجرار.

يتنحى سبعون، أو ثمانون، أو مليون قلب، يبكون:

يا الله! لا تجعلنا رذاذًا يهيم في كل واد، لم شعثنا عليك.

يا خفي اللطف! أدرك ضيعتنا، واجعل نبض الفؤاد شفيعًا لديك.

يا رب! طهرنا، واغرس في قلوبنا نورًا (كالنور الساكن في تراب البقيع)!

ها نحن نفتش عن أنفسنا بين الصفا والمروة، عل جوابًا يتفجر لنا، لماذا نتوغل في الطين يا الله، ونبعثر الغيث ترسله لنا؟!

تأتيك الإجابة بالغة في شعيرة الحج في قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾.

إذ نحن نشتعل في مواسم الشعائر، ثم نغيب في سديم السهو، ثم نتلف من جديد.

والله يريد لك أن تصطحب الشعيرة إلى كل أيامك، مثلما تصطحب نسبك حتى الممات.

اصحب ذكره ففيه أسرار الفردوس الجليلة:

«أنت في الأرض هو أنت في السماء».

ما المعنى؟

المعنى أنه إذا اشتد الشغف فيك في ليل الضراعة، حتى تجلت عليك الهبات.

ورحلت الشمس في إثر خطاك، فأنت أنت.

لأن الله إذا أراد بعبده خيرًا، حبب إليه ذكره، حتى يخلصه من شظف السيئات.

اذكره.

إذ الليل ذر على صفحة عمرك الغسق.

اذكره.

فهو من يأتيك بالمواسم؛ كي تنزع عنك خفي الشوك من عملك.

اذكره.

فقلوبُ الخلق وألسنتهم، تلهج فيك، بما يهمس به الملأ الأعلى حولك ويدندنون.

اذكره.

وانطرح في صحراء فقرك، فبذكره تسعى بين يديك الحقول.

يقول أحد الصالحين:

«لو سمعت صرير أقلام الملائكة، وهي تكتب اسمك في الذاكرين لله، لمت شوقًا».

يا لحروف اسمك تسافر في حبر الملأ الأعلى، فلا تمحى بعد ذلك أبدًا.

انظر إلى عبد العزيز المقدسي كيف ينحت الذكر في روحه، فقد كان يراقب الله في نفسه، ويعد زلاته، فوجدها لا تجاوز ستة وثلاثين زلة.

فقال:

لقد استغفرت الله -عز وجل- لكل زلة مئة ألف مرة.

هذا عبد، صنع من الذنب باقات فرح مهيب، وفهم أن الذنب حلقة الفراغ بيننا وبين الله، فردمها بالذكر.

وكان ابن كمال الدمنهوري قد سما وعلا في زمنه من كثرة الصلاة على النبي ﷺ؛ إذ كان يصلي عليه في اليوم والليلة مئة ألف مرة.

عبد محب يشعل مروج الأجر بشموع، زيتها يوقد من بركة النبي ﷺ.

قال لكم: {فاذكروني} بالتذلل، {أذكركم} بالتفضل.

قال لكم: {فاذكروني} بالتعظيم، {أذكركم} بالتكريم.

قال لكم: {فاذكروني} بترك الأخطاء، {أذكركم} بأنواع العطاء.

أنواع العطاء في جنان تنمو فيها الحسنات، مثل زنابق في روابي أكمل من خيال الوصف.

تفتح يديك للذكر، فتنفتح فيهما جنتان.

ويغزل لك الذكر، عباءة العز عند المليك، ويصهل المجد في معطفيك.

ألف تسبيحة أو ألفان.

ألف تهليلة أو ألفان، تعشب دهور الفردوس بهما.

ويشهد العشب، أنه اعتراه المطر من فم ذاكر يعبر الأرض، وشفتيه تهمس بالشوق للأجر المدخر.

الذكر.

غابة تغفو الأشجار فيها، ثم تهتز بالياسمين.

إذا ذكر الله قلب، اهتزت أصابعه من جفلة الحنين.

فيا أسوار الغيب.

كيف تتبدل المقامات وراءك بالذكر، حتى يغيب رجل في ظل العرش، لأنه مات ولسانه معتكف في ملكوت الله.

تتفتق أجور الذكر في الملأ الأعلى، كأن كل تسبيحة ميلاد ألف شمس وشمس.

كأن كل تهليلة ألف يمامة ويمامة، تشدو في أعطاف النعيم.

وتخيل لهذا المعنى قول نبيك ﷺ لبلال: «إني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة».

كأن وقع قدميه في الأرض، كانت تتلقى صداها تربة الجنان.

مثل موجة، لم تتوقف قط عن الاتساع، حتى استقرت على شاطئ الجنة.

ثق.

أنه لا شيء من ريحك... من أنفاسك... من هواء كلماتك، تبدده الريح.

ثمة معارج ترحل فيها ألوان روحك، تلتقطها السماء، ليرتسم طيفك دون زيف، ولْينقل جبريل من ثم صوت العليم إلى أهل الأرض: «إني أحب فلانًا فأحبوه».

فأنت في الأرض، هو أنت في السماء.

اسأل نفسك في هذا الزمن المبارك: هل لاسمك نصيب في عالم الملأ الأعلى؟

هل ذكرك الله؟

هل نادى باسمك في السماوات وحول العرش وقال: «إني أحب فلانًا»؟!

لو أن ذلك جرى، لحق لك أن يغشى عليك فرحًا.

اذكره كثيرًا كي يذكرك.

واغتنم زمنًا يحب فيه التودد إليه.

فبعض الأزمان، تختزل فيها المسافات، وتحترق فيها المراحل.

ولا يضرك التفرد، فإن طريق العلا قليل الإيناس.

ترجل عن غفلتك، وادلف إلى سر الخزائن التي عند ربك، «واعْتَلِ درج الصعود المستمر إلى الصعود».

غافل هو من يكتب اسمه على رمل متحرك.

غافل هو من يجعل من عمره ورقًا يابسًا.

الغفلة تكنس وجودك، تجعله في مهب السنين.

أما الذاكرون الله، فأسماؤهم معلقة أبدًا على جدران الخلود.

في مكة تصغر الأحزان

سبعُ ليالٍ من الحج يأكلن سبعًا شدادًا من انكساراتنا.

كل ليلة، كأنها دهر من فجر ممتد.

تتهيأ مكة، تشعر أن فيها لحظةً خفية ينتظرها القادمون.

لحظة، ستخرج أعمق المكنونات، فليت دمع الخليقة يكفي لتلك اللحظة.

تقرأ الشجون في عيون العاشقين، ترتجف ذواتهم في مقل الدموع، تطفو الأماني على الأهداب الغارقة في نوح مهيب.

ما ظنكم بأناس يرتحلون إلى الآخرة كل يوم مرحلة.

في مكة... لا أحد يحدق في القاع.

الكل يحدق في اللامتناهي من العطاء، فتلك لحظة لا تتسع لها الأرض.

تلك لحظة، لا يعلم سرها إلا الله.

لحظة، تعيد تعريف السعادة، وتبدو معها كل الأفراح صغيرة.

ويا لله! كيف تنسج الشعائر الحجيج شيئًا فشيئًا.

يخلعون أسمالهم في اتجاه القبلة.

ويبكون هناك خلوة الذنوب.

يتدفق الألم إلى زوايا عميقة في النفوس.

تتلامس الأصوات من تشابه الوجع.

وتخفق القلوب لبعض الدموع، فهذه دموع، تعرف الأرواح أسبابها.

يكاد قلب أن يربت على قلب ويقول له:

لا تجزع، فعند الله متسع لنا جميعًا.

يشتهي الحجيج لو يغادرهم الزمان، ويظلون معلقين بأستار الكعبة، يفتحون جراحهم عند الله، يخيطها لهم ويلتئمون.

في مكة، تصغر الأحزان.

فقط؛ ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾.

واخلع نفسك، واخلع عجزك؛ ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

تعلمكَ الشعيرة أنه {ومَن يعظم شعائر الله فإنها مِن تقوى القلوب}، بهذه اللغة الشاهقة، يهيؤك الحج للمعاني الشاهقة.

ويقول لك: تنبه فإن البعد عن الله هشاشة الروح.

تزداد هشاشتنا، كلما أسرفنا في الغياب عن الله.

مصابنا: أننا لا نشم ذنوبنا إلا بعد وقوع الفاجعة.

مصابنا: أننا كلما وضعنا نهايةً لسطر مشؤوم، جاء الشيطان واستأنف الذنب.

الشيطان يريد لك أن تنتهي حيث انتهى.

فتأتي الشعائر لترتل عليك: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾.

الذنوب هي ندوب الروح، لذا قالها العارفون بالله:

من أطلق هواه غلت خطاه.

من أطلق بصره، فارقته الرؤى.

ومن أرخى الزمام لنفسه، وقال لها سيري، بلغت به المحاق.

ألم يقل النبي ﷺ: «لأعلمن أقوامًا من أمتي، يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضًا، فيجعلها الله -عز وجل- هباءً منثورًا».

قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا، جلهم لنا، ألا نكون منهم ونحن لا نعلم؟!

قال: «أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام، إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها».

كما ينتهك الشيب سواد الضفائر، فيغتال الجمال.

هو يعلمك: «ما لم تكن جلدًا على أزماته لا يصطفيك»، فافهم معنى المرابطة على التعظيم.

إن النفس إذا تشبعت بالتقوى، عظمت الشعائر.

لأن التقوى هي القيام لله، ومن قام لله لم يقعد حتى يصل إلى الله.

المتقون هم: قوم قعدت عنهم الشهوات، فصح قيامهم بالله.

(فخلِّ جراحك الدكناء) وراءك.

تلقى الشعائر ملامحها في وجوهنا.

تمتزج زمزم بريق الحجيج.

لا شيء مرئي في الحج إلا المناسك.

لكنك كلما أصغيت، سمعت صوت قلب يمتلئ.

فيا لله! كيف يحتفي به الله، وينطق منه الحال، {إنه كان بي حفِيًّا}.

مع كل شعيرة، يقل اتساع الفراغ بين الحجيج وبين مناجاة الله، ويبلغون مقام {ولم أكن بدعائك رب شقيًّا}.

التقط المعنى من حكاية إبراهيم بن أدهم، ينزل إلى السوق، وكان مسرفًا على نفسه، فيجد ورقةً ملقاةً على الأرض وقد كتب فيها اسم الله تبارك وتعالى، والناس يطؤونها بأقدامهم، وهم داخلون إلى السوق وخارجون ما يعلمون، فأخذ الورقة، فنظر فإذ اسم الله فيه، فبكى، وقال: سبحان الله يهان اسمك هنا؟ لا والله، فرفع هذه الورقة، وذهب بها، وطيبها، ورفعها في بيته، فلما أمسى، سمع هاتفًا يقول:

يا من طيب اسم الله، وعظم اسم الله، ليعظمن الله اسمك.

فهداه الله إلى التوبة النصوح، وأصبح من زهاد الإسلام، ومن عباد الإسلام، وحين مات، اجتمعت مدينته في جنازته ألوفًا مؤلفة من الأمراء، وقادة الجيش، والفقراء والمساكين، حتى وصلوا المقبرة، وقد تقطعت أحذيتهم من كثرة الزحام.

يتقهقر الشيطان قبل الرجم، تمتلئ المناسك بصوتك، وتفهم، لماذا اختص الحج بالتكبير.

فتعظيم الله هي اللحظة التي يريد الله لك أن تبلغها.

وتدرك بها، أنه لا تصح لك عبودية، ما دام لغير الله في قلبك بقية.

خيام منى

تنتثر خيام منى في عتمة الظلام، مثل قباب النور، ترتفع الفوانيس في الخيام، ويبدو العابدون مثل غرة بيضاء في ليلة حالكة.

وتبدو منى، مثل حقول القمر.

يتآلف هديل الحمام في منى، مع صوت المعتكفين على القرآن، يرتلون بأصوات سماوية، حتى يفيض المصحف في قلوبهم نورًا أبديًّا.

يرتشفون القرآن.

ثغورهم تفتر عن ضوء ينسكب في المكان.

تتلألأ خيام منى، كأنها اشتعال الدهشة.

كأنها ضباب كثيف من خفق النور، من أجنحة الملائكة.

هنا!

تنقش حروف الآخرة، وتذبل حروف الدنيا.

هنا!

بدء المسافة إلى صوت السلام في النعيم.

وهنا!

الليل يقيده صوت القارئين.

ويرتقي القلب من الفراغ إلى الجواب، أنه:

«لن يذبل قلب صار له القرآن ساقيًا».

وأن كل خير، سيورق من سطور المصحف.

هنا!

تتلو مكة سورة الأعلى، ويلتفت الحجيج، فلا أثر لـ {حمالة الحطب}.

يتدثر الحجيج برائحة الوحي، وتهمس الملائكة:

{يا أيها المزمل قم الليل}.

يسقط الحزن، ويستفيق الغيث في: {ألم نشرح}.

يصبح المدى غيومًا بـوعد:

{إنا أعطيناك الكوثر}.

تصفو النجوم، حتى كأن الزمان هو:

{الفجر وليال عشر}.

وتقترب الوعود الممطرة، حتى تكاد تسمع:

{ولسوف يعطيك ربك فترضى}.

تهب نسائم الجنة في منى، حتى كأنها تحميك من:

{شر الوسواس الخناس}.

وتبقيك في حفظ:

{الله الصمد}.

وترى أبواب السماء، إذ تنهمر بحجارة من سجيل، وتسمع الحقيقة في قوله:

{ألم تر}.

فيا للقرآن!

كيف يتجلى في أرواح الحجيج.

ترددده مكة، كأنه يتنزل من {الأفق الأعلى}.

في رحلة الحج.

يتعلم الحجيج، أنه على قدر طول الصحبة مع القرآن، يمنحك القرآن من أسراره، وفيض بركاته.

ويوقفك على شرفة المستحيل.

أما بلغك أنه ﷺ كان يتبرك بآيات القرآن، ويستعين بكلمات الله؟!

كان ﷺ في غزوة، فلقي العدو، فسمعه أحد الصحابة يقول:

(يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين).

فقال الصحابي:

«ولقد رأيت الرجال تصرع، تضربها الملائكة من بين أيديها ومن خلفها».

يقتفي أحد الصالحين أثر القافلة المحمدية المباركة، ويرتحل خلفها، واسمعه إذ يقول:

«ولقد مر بي وقت في مكـة سقمت فيه، ولا أجد طبيبًا ولا دواءً، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيرًا عجيبًا، آخذ شربة من مـاء زمزم وأقرؤها عليها الفاتحة مرارًا، ثم أشربه، فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع به غاية الانتفاع، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألمًا، فكان كثير منهم يبرأ سريعًا».

فإن كان لك حاجة، فأعط القرآن على قدر ما ترغب أن يعطيك الله في حاجتك.

فقد أوصى الإمام إبراهيم المقدسي تلميذه عباس بن عبد الدايم -رحمهما الله-:

«أكثر من قراءة القرآن، ولا تتركه، فإنه يتيسر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ».

وقال العباس:

«فرأيت ذلك وجربته كثيرًا، فكنت إذا قرأت كثيرًا، تيسر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ، لم يتيسر».

جربوا ذلك باليقين؛ اقرؤوا سورة الفاتحة وسور القرآن.

جربوا قراءة سورة {ألم نشرح}، كرروها، واسألوا الله بها أن ييسر أمركم.

تشبثوا بالقرآن.

عاملوه بما يليق.

وأذنوا لكل خلاياكم أن تتشرب شفاءه، وتتنفس روحه.

ورحم الله ابن مسعود، الذي كان إذا قرأ القرآن، كانت محبرته معه، إذ كان يسطر فيض القرآن فيه.

اكتملت الرحلة

يمتلئ بك المكان يا رسول الله، ويراك الحجيج قاب قوسين حولهم، أو أدنى.

يرهفون السمع، فهنا القصواء ناقة النبي ﷺ مثل ظبية تحمل عشقها.

تتهادى القصواء، مثل عروس من عالم الأساطير.

تغرق خطوتها في بحر من النعم، فنهر النبوة على ظهرها.

يضطرب إيقاع الكون من وقع قدميها وجلًا، أن تمر تحت الخف حصاة ويهتز الحبيب ﷺ.

يلتف الصحب آلافًا، مثل شهب تفردت في ظلمة العتم.

ويمضون مع الركب المبارك نحو عرفة.

وعلى ضفة أخرى من التاريخ، يطوي الحجيج الليلة أمتعتهم إلى عرفة.

ثمة مخاض ينتظر الكون غدًا.

ثمة ميعاد مع ألف ميلاد وميلاد، فيا لهف قلبي:

(كيف يغفو الليلة من في قلبه شغف).

يا هيبة الفجر!

إذ تلوح أشعة الشمس تلوّنها ملامح النبي ﷺ بألق النور.

أهذا وهج التجلي المحمدي، أم رجفة الأكوان، وهي تحصي أنفاس الملائكة النازلين لاستقبال قافلة النبي ووفد النعيم.

يتراص الحجيج على الرواحل، ويتدفقون إلى عرفة.

فاليوم، ستتلى لهم فاتحة البدء من حكاية فضل لن تنتهي.

يمد الحجيج الخطى، وما بين النبضة والنبضة، تخفق أرواح.

ما بين النبضة والنبضة، يطير حمام القلب إلى عرفة.

فاليوم الموعد مع الله.

فيا مكة الله، يا بلدة الله فاض الفضل فانهمري!

تقترب الشمس من رحال النبي ﷺ تلتمس من شعاع النبوة شعاعًا.

تنتصف الظهيرة، ويتبدى ظل محمد ﷺ مزروعًا أبدًا في الرمال.

تزهو القصواء، إذ تحتشد الملائكة والصحابة حولها لخطبة الوداع،

فيا لله!

كيف يتآخى الوجع والفرح... زهو القصواء وخطبة الوداع؟!

ترف أجنحة الملائكة قاب أنفاس النبي ﷺ وهو يخطب الخطبة الأخيرة، تتبعه النجمات، وتصغي للصلاة الأخيرة.

هنا!

الوقت بالنماء يمتلئ.

يزرع محمد ﷺ الفردوس بكلماته.

ويراق رحيق النبوة في الأحداق الدامعة.

وتتلى الوصية:

[إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية، تحت قدمي موضوع].

يلتفت الحجيج اليوم إلى ثيابهم، هل اكتمل الإحرام من بياض الحلال؟!

يتمضمضون تاريخًا من الشوك، فقد ابتلت الأفواه كثيرًا من أعراض الناس.

ينتحي حاج ويبكي:

يا ربي! احدودبت أرواحنا من ثقل ما فيها.

يا ربي! إن علينا من شعث الجاهلية همومًا وهمومًا.

يا ربي! أدعوك وشوك المعاصي على شفتي.

يا ربي! لا تجعل رجوعي من هنا مرًّا.

يغرق الحجيج في أسرار صمت تنبئك، أن في الخوابي دمعًا يخفيه القوم.

يداري شاب اختناقه.

ما أصدق الدمع وهو يفضح صاحبه!

ينتبذ رجل عن خيمته في نوح شهي:

يا رب! هب ضعفي يدًا بيضاء من غير سوء تمتد إليك، وادخرني لديك.

ترتج البقاع، ويشتد الناس في الوجل.

وتسمع همس تائب:

يا ربي سفني مثقوبة، وأشتهي الإبحار إليك، وليس معي إلا أشرعة ممزقة!

يا رب، تذكي خطيئتي نارًا أنت تعلمها، فأطفئ أوار النار!

تلمح عبدًا يتأرجح بين احتراق ورغبة في انعتاق.

فيا لله! كيف يهتز العرش لبعض الدعوات؟!

كبياض الياسمين يرتفع صوت النبي ﷺ للأمة:

«اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله».

تحشد عرفة أصداء الوصية، وتصبح الدروب مروية بالمطر.

أواه! لو نهاجر من جذورنا إلى جذورك يا رسول الله!

في قاموس البر معانٍ كثيرة، تمتشق الوصية القبة فيها.

أتذكر النساء في خطبة الوداع، يا قامة النور ويا خير البشر؟!

يستقبل النبي ﷺ القبلة، ويظل واقفًا من وقت الظهيرة، حتى تصفر الشمس ويغيب القرص في تبتل عجيب.

يرتجف الكون، وتهاجر الملائكة إلى الأرض أسرابًا، ويصمت الحمام، تقترب ساعة الدنو، وتجفل السماء، ينادي النبي ﷺ في الصحابة:

«السكينة السكينة».

تطرق الأرواح، ويفيض وهج خفي، ويهتز عابد من شدة الوجد ويصيح:

«يا عافية العليل يا عرفة!

يا الله! لا تتركني ملقى دون طريق.

يا رب! لا مسافة بين الكاف والنون، لا مسافة إلا في وهمي، لا مسافة إلا من ذنبي.

فيا مولاي! أنت الحبيب وأنت الحب يا أملي، مـن لي سـواك، ومن أرجوه يا ذخري».

يا رب!

في موقف عرفة، أعمار هي ثلاثون أو أربعون أو ستون انتظارًا، فامنن عليها بدهشة الفضل.

في ناحية بعيدة، تسيل عين حاج وهو يقول:

«يا رب قد كبرت فأعتقني!

يا ويلاه! كيف قيدت في الهباء طريقي».

فيا لازدحام الدعوات!

ويا لازدحام الدمعات! ترتل أسماء أصحابها، و(دمعات أهل العشق ترتيل).

يقوم عاشق في عرفة يشتهي أن تقع قدم على قدم، وهو يقول: «قليل من يد الله كوثر».

فكيف واليوم هو يوم الكثير.

صدق الثوري إذ قال:

«أخسر الناس صفقةً، من ظن أن الله لا يغفر لهؤلاء».

تلوح خيوط النعيم، تنسج للحجيج بردة المغفرة.

عبق شهي يغمر المكان.

تظلل السكينة غربة التائهين.

لا قلق بعد اليوم ولا سراب.

يخف وجيب القلوب لحظة الاقتراب الإلهي، وتمس الأحلام، فقد استجيب الدعاء.

يبكي لاجئ يمني، يا رب من علينا بزمن {فيه يغاث الناس وفيه يعصرون}، فيرد عليه صبي من الشام، يا رب آمين.

يمنح رجل من القدس منديل شهيد، لسيدة من العراق ويقول لها:

لن يجف زمن فيه عرفة، لولا دعاء عرفة لصار العالم خرابًا.

تصفر الشمس، وتصبح عرفة ساحة عرس مبللة بالندى.

الغيوم في أيدي الحجيج.

وفي قلوبهم مطر.

يبتسمون للسماء.

ثمة ضوء يعيد ترتيبهم، فقد اكتمل الشفق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة

على خطى إبراهيم

كم هو عُمرك يا إبراهيم؟
هِجرات ثلاث..
وسنوات ممتلِئَة بالتَّضحيات..
وبناء بيتٍ لله..
ومشاهد لا تُحصى من مواقف الثَّبات!

بهذا تُقاسُ الأعمارُ يا سيِّدي..
بعُمقِها وليس بطُولِها!

وربَّ عُمر اتَّسعت آماده، وكثُرت أمداده، وأمطرت غيماته إلى قيام الساعة!
يا إبراهيم.. رَفَعْتَ بيتًا لله، فرَفَعَ اللهُ لك ذِكرَكَ، ورفَعَ مَقامك..
فلم يَلقَك مُحمدٌ ﷺ إلا في السَّماء السَّابعة، مُسنِدًا ظَهركَ إلى البيتِ المَعمور..
ووَحدكَ دُون الخلائِق امتلَكتَ هذا الشَّرف الجَليل!

9 789776 972346

عصير الكتب
aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb